عبد الرحمن الكواكبي

وأسئلة النهضة

ندوة الأربعاء الثقافية الشهرية
(الثانية)

عبد الرحمن الكواكبي وأسئلة النهضة

إعداد وتوثيق
د. إسماعيل مروة
أ. نزيـه الخـوري

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٧م

عبد الرحمن الكواكبي وأسئلة النهضة / إعداد وتوثيق إسماعيل مروة، نزيه الخوري. –
دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٧م .– ١٥٢ص؛ ٢٤سم.
ضمن ندوة الأربعاء الثقافية الشهرية الثانية.

١ – ٣٠٣,٤ م ر و ع   ٢ – ٩٢٢: الكواكبي، عبد الرحمن   م
٣ – العنوان   ٤ – مروة   ٥– الخوري.

مكتبة الأسد

مُقَدِّمَة

الكواكبي.... حرب الجهل والاستبداد

لم يكن عبد الرحمن الكواكبي نبتاً غريباً من تربة لا تشبهه بل إن الكواكبي كان مطراً لتربة تحتاجه، وكان خيراً وسط عالم متكالب من الشرور، وكان دواء لسقم أمته ومجتمعه.....

قبل مئة عام من اليوم كانت الأمة تعاني مخاض وجودها، فبعد قرون من تسليم القياد والزمام لأغراب عن الأمة، ساقوها حيث شاؤوا جاءت النهضة العربية الحديثة، جاءت تحت وقع سياط السلطة العثمانية التركية، وتحت روح مسيطرة، هي إلى الانتقام من العروبة وما تملكه أقرب، جاءت النهضة في محاولة من أبناء الأمة ومثقفيها ومفكريها للعودة إلى الماضي المجيد، والنظر إلى المستقبل.....

عصر النهضة لم يُدرس كما يجب، ولم يقم أحد بإنصافه وإنصاف رجالاته الكبار، الذين أعطوا الأمة ونهضتها ما لا يمكن للمرء أن يتخيله، بل وما لا يمكن لنهضة أن تقوم دونه، وكل ما حصل عليه رجال النهضة والإصلاح مجموعة من الاتهامات غير المنصفة التي قلبت عليهم الرأي العام، سواء كانت الاتهامات من

السلطات، أو من مجتمع ظلامي، أو مجتمع جاهل،أو أصحاب مصالح تكون النهضة إن تحققت خصمهم الأول، ولو سألنا المثقفين عن مآلات رجال النهضة لم نجد لديهم أدنى معرفة، ناهيك عن الوصول إلى جوهر دعوتهم.

عبد الرحمن الكواكبي واحد من هؤلاء الذين قدموا علمهم وحياتهم من أجل مجتمعهم وأمتهم، وأثيرت حوله زوابع كثيرة تحاول أن تشكك في انتمائه الديني حيناً، وفي سلامة فكره الذي يطرحه حيناً، وفي غاياته حيناً آخر!!

ترى لو لم يكن الكواكبي بهذه المكانة العالية هل يلاحقه السلطان ليقوم بتسميمه وقتله؟؟!!

من سورية، من حلب، خرج الكواكبي مؤمناً بأمته وعروبته، خصمه الجهل، وعقيدته العلم والانطلاق إلى الآفاق.... حدّد الخصوم للنهضة بالجهل والتطرف الديني والاستبداد، ولنا أن نوسّع مروحة قراءتنا لنعرف كم كان مصيباً في قراءته، فأنتج كتابيه الذين شكّلا ثورة، وإلى اليوم هما ثورة فكرية (طبائع الاستبداد، أم القرى).

ونظراً لأهمية الكواكبي ومرتكزاته الفكرية والدينية والسياسية، بل والنهضوية كان موضوع ندوة الأربعاء الثقافية الشهرية الثانية.

وقد أولى السيد وزير الثقافة محمد الأحمد عناية بالندوة والكواكبي، ما عزّز من حضورها، والكشف عن جوانب مهمة من فكره وحياته.

قدمت الندوة بحثين علميين، الأول دار حول فكرة الدولة من خلال كتابه

(أم القرى) قدّمه الأستاذ الدكتور «عبد الكريم محمد حسين»

والثاني حول الحكم و (طبائع الاستبداد) قدّمه الصديق الدكتور «راتب سكر»

ويضم هذا الإصدار مختارات من الكتابين، إضافة لما كتبه العملاق عباس محمود العقاد عن الكواكبي، لأنه يمثل شهادة عالِم نادرة.

الشكر لوزارة الثقافة والهيئة السورية العامة للكتاب

ولكل من أولى عناية ومتابعة لحراك ثقافي

نحن أحوج ما نكون إليه......

لجنة الندوة

د. اسماعيل مروة

أ. نزيه الخوري

الكواكبي المضيّع وأسئلة النهضة

د اسماعيل مروة

يقول الكواكبي مشخصاً وقارئاً وناقداً الوضع العربي الذي واجهه في مطلع حياته، فلا يخرج عن حقيقة ماتزال ماثلة إلى يومنا هذا، وقد نحتاج عشرات من الكواكبي:

«الغربيّ أرقى من الشرقي علماً وثروةً وسعادة، فَلَهُ على الشرقيين إذا واطنهم السيادة الطبيعية، أما الشرقيون فيما بينهم فمتقاربون لا يتغابنون.

الغربيّ يعرف كيف يسوس، وكيف يمتع، وكيف يأسِر، وكيف يستأثر. فمتى رأى فيكم استعداداً واندفاعاً لمجاراته أو سبقه، ضغط على عقولكم لتبقوا وراءَه شوطاً كبيراً....

كما يفعل الروس مع البولونين واليهود والتتار، وكذلك شأن كل المستعمرين....الغربيّ مهما مكث في الشرق لا يخرج عن أنه تاجرٌ

مستمتع، فيأخذ فَسَائل الشرق ليغرسها في بلده التي لا يفتأ يفتخر برياضها ويحنُّ إلى أرياضها.... وقد مضى على الهولنديين في الهند وجزائرها، وعلى الروس في قوزان، مثل ما أقمنا في الأندلس، ولكن ما خدموا العلم والعمران بِعُشر ما خدمناها.

ودخل الإفرنسيون الجزائر منذ سبعين عاماً ولم يسمحوا لأهلها بجريدةٍ واحدةٍ تُقرأ، نرى الإنكليزيّ في بلادنا يُفَضّل قديد بلاده، وسمك بحاره، على طريّ لحمنا وسمكنا، فهلاّ والحالة هذه تبصرون، يا أولي الألباب». هذا قبل قرن من الزمن... من طبائع الاستبداد، هكذا قرأ الكواكبي النهضة كما أرادها بعد قرون من الظلام.

والكواكبي ليس شاعراً يقول نشيداً يُغَنَّى، ولو كان كذلك لذاع، ولكنه صاحب فكر ورؤى...

فاليوم بعض المتخصصين إن لم يكن قارئاً سيصعب عليه أن يعرف الكواكبي... في أم القرى وضع الكواكبي آراء كثير وهذه الآراء لقيت من القبول ولقيت من التضاد أو الرفض من الكثيرين.... ولكلٍ حجته لكن أحداً من الطرفين لم يُنصِف الكواكبي، رجل الفكر.

* * *

أوليات الرؤية والتفكير
في طبائع الاستبداد وأم القرى

بقلم
أ. د عبد الكريم محمد حسين

أوليات التفكير:

١ - التاريخ الطبيعي للإنسان (ومرجعية العقل تقتضي العلم، والصدى صناعة وتجارة، وتأمل ونظريات)

٢ - الفصل بين الدين والدولة، والتعلق بالمنافع دون المبادئ في تناوش المسائل العامة.

٣ - التنوير التراثي من القرآن وحده دون السنة، وتنوير القرآن في الإشارات العلمية التي أكدها العلم الحديث، والدين وسيلة للخلاص الفردي كالشافعية والصوفية في أم القرى، والخلاص الجماعي بالدولة المدنية وقوانينها. والدين وسيلة للإخلاص في العمل لدى الدولة لحلول مراقبة الله على موظفيها..

٤ - والتنوير الواقعي لديه باتباع طرق الدول المتقدمة التي انتهت من حروبها إلى تنظيم حياتها السياسية فانتظمت سائر حيواتها الأخرى.

٥ - دوائر الحركة الاجتماعية: الإنسانية والشرقية والعرب وغيرهم..

٦ - مصدر الشعور بالاستبداد احتضار النظام العثماني التركي، وهو لم يذكر الدولة العثمانية.

٧ - تعميم الفساد في أنظمة الحكم من القديم إلى عصره يراد به إبراز خصوصية التجربة التركية في الاستبداد وضخامة الفساد الناشئ من بنية النظام المستبد.

٨ - قوة الاستشعار بقيام الاشتراكية قبل قيامها، وتجمع الإسرائيليين، وإبراز السلفية النجدية (الشيخ النجدي) بحضور رئيس مؤتمر أم القرى المكي (الأشراف)، وميله نحو الاشتراكية على اعترافه بها أسماه الإسلامية، وكأنه كان يدعو الإسلاميين من الفرق الإسلامية إلى إنشاء جمعياتٍ إسلامية الخيمة مع النظر إلى الأوطان وتعددها، والمذاهب وتنوعها، والألوان وتشكلها، على رابطة المنافع المشتركة بغض النظر عما تقدم.

٩ - في أم القرى أبرز نظرته إلى الأوطان فخاطب الحاضرين بأوطانهم (الهندي، التبريزي، المقدسي، التتري، الصيني.. الإنكليزي.. النجدي.. المكي.. الشّامي) ولم يخاطبهم بمذاهبهم الدينية، وحاول تطهيرهم باستخراج اعترافاتهم بما في مذاهبهم من آراء باطلة مستثنياً بعض الفرق..

١٠ - فسر الجهاد تفسيرا جديدا على أنه العمل للصالح العام من غير أجور مادية، ولم يمنع مجاهدة المتقدمين ولا المتأخرين في الزمان من باب تعميم الخير ولو بالقوة.

١١ - ومن أولياته أن ما يصلح للغرب يصلح للشرق، وما أصلح الغرب يصلح الشرق.

١٢ - تطبيقات هذه الأوليات في تشخيص ظاهرة الاستبداد التي أنتجت الفساد والبحث عن أسبابها، واقتراح علاجها.

خاتمة البحث

الوراقة:

الرحلة إلى الكواكبي(١) متعبة وممتعة معاً، لأن مغادرة الزمان من الحاضر إلى الماضي أمر محال في الحس، لكنه ممكن في عوالم النفس التي تنظر في الوجود وتعيد تشكيله من جديد فنياً، وصَعبٌ عليك أن تصاحب الكواكبي من ولادته (١٢٦٥هـ=١٨٥٤م) إلى وفاته (١٣٢٠هـ=١٩٠٣م) مدة تسع وأربعين سنة.

فهذا عمر ثان تضيفه إلى أطوار حياتك النفسية التي عشتها، وتتقلب في حياته من خلال آثاره في مؤلفاته: طبائع الاستبداد وأم القرى، ورحلاته في العالم الإسلامي من أفريقيا إلى الهند وحدود الصين، وتقلبه في وظائف الدولة التركية، وبقراءة ما كتبه بتدقيق قليل تكتشف أوليات الرؤية لديه، وأوليات التفكير، على أن آلية التفكير تستمد طاقتها من أوليات الرؤية، وبقياس ما جاء به إلى ما انتهى إليه في مؤلفاته تدرك أن الرجل وضع يده

---

(١) انظر مثلاً: عبد الرحمن، د.محمد الرحمن برج، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م، وعبد الرحمن الكواكبي فارس النهضة، د.ماجدة حمود، كتب عربية [د.ت].

على الشيخوخة الحضارية للعالم الإسلامي، وغسل يديه من وحدته؛ لأنه أدرك آليات الانهيار في توجه العرب والمسلمين:

إما إلى الانقراض بأيديهم، وإما إلى التلاشي بأيدي أعدائهم(١)، وذهب إلى أن القرآن من غير تأويل الفرق الإسلامية أو الأحزاب الإسلامية، اعتماداً على العربية بقي منه إعجازه العلمي بفضل تقنيات الغرب.

وفي التحقيق تجد الكواكبي يريد للعرب (الخلافة والإسلامية) ليبقوا على مسرح الحياة والقيادة، وللأتراك أن يبقوا على السلطنة، وينتهي إلى مواد قانونية غربية سقطت من تعاليمها الآيات والنصوص التي تشاجر الناس فيها وحول معانيها؛ فلم يتفقوا على شيء منها، وبهذا وجد طريق الخلاص إلى الدولة المدنية. وهو لم يكتب كلمة واحدة تعادي الغرب في هجومه على الأمة كلها، وقد أفاد الغرب من سياسات السلطنة العثمانية القامعة للقوميات غير التركية ومنها العرب، فكانت رؤية الكواكبي وأشياعه تنبع من بدهيات الضعف أن الاستعانة بأحد الخصمين على الأكثر ضعفاً منهما يعد فطنة وذكاء بغية تولي السلطة خدمة لصالحتين: إحداهما للعرب والأخرى للغرب باسم الإنسانية، ومن خلال هذا الواقع فصل بين العرب والترك، وبين الإسلام العربي السلفي النجدي والزيدي، وإسلام التصوف التركي والجبرية القدرية تخدر العموم، وأغرى الغرب بالإفادة من المسافة الحاصلة بين المستبد الجائر والعرب الذين وقع الجور عليهم.

---

(١) انظر: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبد الرحمن الكواكبي، تقديم: د.أسعد السحمراني، بيروت - دار النفائس، ط٢، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م: ١٣٦، ١٥٠.

الرؤية:

اشتق الكواكبي رؤيته وأولياتها من مختبرات الحياة: منها تربيته في أسرته، ومعاناته في مجتمعه من قيادته السياسية التركية، وثقافته بالقراءة عما عند الفرنجة[1] من أدبيات سياسة، وحاول تفريغ العرب من الخوف على عقائدهم من الغرب؛ لأن الدولة المدنية لا تعبأ بدينك ولا مذهبك مهما يكن، فليس في الدولة بالمفهوم الغربي سوى العلاقة بصوالح الجماعة وأسماها الاشتراكية ((الْعَرَب أهْدى الْأُمَم لأصول الْمعيشَة الاشتراكية.))[2] وقال: ((ولا غَرْوَ إذا كانت المعيشة الاشتراكية من أبدع ما يتصوَّره العقل، ولكن؛ مع الأسف لم يبلغ البشر بعدُ الترقّي ما يكفي لتوسيعهم نظام التعاون والتضامن في المعيشة العائلية إلى إدارة الأمم الكبيرة. وكم جرَّبت الأمم ذلك فلم تنجح فيها إلا الأمم الصغيرة مدة قليلة. والسبب كما تقدَّم هو مجرّد صعوبة التحليل والتركيب بين الصوالح والمصالح الكثيرة المختلفة.))[3] وكان قدم تأصيل الفكرة من خلال الدين العربي بقوله: **((ثمَّ أحدث الإسلام سُنَّة الاشتراك على أتمِّ نظام، ولكن؛ لم تدم أيضاً أكثر من قرنٍ واحد كان فيه المسلمون لا يجدون من يدفعون لهم الصدقات والكفّارات، وذلك أنَّ الإسلامية - كما سبق بيانه - أسست حكومة أرستقراطية المبنى، ديمقراطية**

---

(١) انظر: طبائع الاستبداد: ٣٣-٣٤.

(٢) **أم القرى:**، للسيد الفراتي، وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦هـ، القاهرة -المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر، ١٣٥٠هـ-١٩٣١م: ١٩٦.

(٣) طبائع الاستبداد: ٩٦.

الإدارة، فوضعت للبشر قانوناً مؤسساً على قاعدة أنَّ المال هو قيمة الأعمال، ولا يجتمع في يد الأغنياء إلا بأنواع من الغَلَبة والخداع.

فالعدالة المطلقة تقتضي أن يؤخذ قسمٌ من مالِ [الأغنياء] ويُردّ على الفقراء؛ بحيث يحصل التعديل، ولا يموت النشاط للعمل.

وهذه القاعدة يتمنّى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدن الإفرنجي، وتسعى وراءها الآن جمعيات منهم منتظمة مكوَّنة من ملايين كثيرة))[1].

فهو يرى أن يؤخذ بعض أموال الأغنياء ليوضع في أيدي بعض الفقراء لتنطلق عجلة الاستثمار بطاقتها العظمى.

ففي دعوته إلى الاشتراكية كان يبدي دعوة للتعاون الجماعي، وكان يستشعر الثورة البلشفية التي قامت ١٩١٧م بعد وفاته بخمسة عشر عاماً، ويمهد بتأصيلها في التراث تسهيلاً لدعاتها ولحركتهم في المجتمع العربي. وهو ينتقل بالناس من الالتفاف حول المبادئ والمذاهب إلى الالتفاف حول المنافع الجماعية التي لا تلغي المنافع الفردية، والتحول من نقاط الاختلاف إلى مواضع التطلع والائتلاف.

أما أسرته[2] فمنسوبة إلى آل البيت - رضي الله عنهم - فكان أبوه أحمد بهائي بن محمد مسعود الكواكبي. وقد ولد ١٨٥٤م بحلب، وفي

(١) طبائع الاستبداد: ٩٤.

(٢) انظر: عبد الرحمن الكواكبي جدلية الاستبداد والدين، حسن السعيد، قم - مكتبة مؤمن قريش، سلسلة رواد الإصلاح، العدد (٥) ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م: ٢٣، الأعلام، لخير الدين الزركلي، بيروت –دار العلم للملايين، ط: ١٤، ١٩٩٩م: ٣/ ٢٩٨.

عام ١٨٥٩م ماتت أمه عفيفة بنت مسعود آل نقيب، وعمره خمس سنوات، ورعته خالته صفية آل نقيب، وأيّ امرأة بعد أمه تستطيع أن تقوم مقامها في التربية؟!! ويلحظ أن آل الكواكبي في حلب وآل النقيب في أنطاكية يفتون في مسائل الدين هنا وهناك. ولاريب في أن الفتيا تختلف باختلاف المكان والمجتمع والمفتي، وهذا مصدر من مصادر تعدد الرؤى والرؤية بين الناس في حلب وأنطاكية والتفاعل الاجتماعي بين العرب وغيرهم من القوميات كرداً وتركاً وتركماناً وشركساً.. والتفاعل الديني بين المسلمين والنصارى واليهود، والتفاعل المذهبي بين المذاهب الإسلامية، والمذاهب النصرانية فيما بينها أيضاً..فالقلق ينشأ من هذه الأحوال المؤتلفة في صورتها المتصارعة في فكرتها، المستعدة للانفجار في أي وقت.. ومثال ذلك الصراع القومي التركي الأرمني الذي لم يرض العرب المشاركة فيه كما يرى الكواكبي[1].

ومن انتسابه لآل بيت النبي نشأت فكرة اعتداله وقبوله للتيارات الرئيسة في الأمة كموقفه من مذهب التبريزي، وتسمية أصحابه مجتهدين[2] وسترى غيرهم..من بعد.

وفي ولادته بحلب إسهام في تنبه الكواكبي إلى السياسة العالمية ذلك أن ((حلب مدينة حل وترحال غير منقطعة عن العالم، ولم تنفصل قط عن حوادثه

---

(١) انظر: أم القرى: ٢١٥.

(٢) أم القرى: ١٣١.

وأطواره، كأنها المرقب الذي تنعكس فيه الأرصاد فلا تخفى عليه خافية، ولا ينعزل بينها عن دانية ولا نائية))[1].

فهي مقصد للرحالة من مختلف جهات الدنيا، وهي على تواصل تجاري وثقافي وسياسي بالعالم كله، ومن هذا الموقع تبرز فكرة الانتباه إلى المستقبل.

وأما الجانب الاجتماعي من أعلاه السياسي، فتجد الكوكبي يبعث رؤيته للدولة العثمانية من بعدين: أحدهما تاريخي، والآخر اجتماعي، وفي رؤيته جزء من البعد التاريخي، فقد كشف عن خيانات الدولة التركية للعرب بقوله:

((أَلَيْسَ التّرْك قد تركُوا الْأمة أَرْبَعَة قُرُون وَلَا خَليفَة، وَتركُوا الدّين تعبث بِهِ الْأَهْوَاء وَلَا مرجع، وَتركُوا الْمُسلمين صمًّا بكماً عمياً وَلَا مرشد؟

أَلَيْسَ التّرْك قد تركُوا الأندلس[2] مُبَادلَة. وَتركُوا الْهِنْد مساهلة، وَتركُوا الممالك الجسيمة الآسيوية للروسيين، وَتركُوا قارة إفريقيا الإسلامية للطامعين، وَتركُوا المداخلة فِي الصين كَأَنَّهُمْ الأبعدون؟!!

أَلَيْسَ التّرْك قد تركُوا وُفُود الملتجئين يعودون خائبين، وَتركُوا المستنصرين بهم عرضة للمنتقمين، وَتركُوا ثُلثي ملكهم طعمه للمتغلبين؟

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي، عباس محمود العقاد، القاهرة الهنداوي، ٢٠١٢م: ٧.

(٢) انظر: أم القرى: ٢٠٣.

أفما آن لَهُم أَن يستيقظوا ويصبحوا من النادمين على مَا فرطوا فِي الْقُرُون الخالية، فيتركون الْخلَافَة لأَهْلهَا وَالدّين لحماته؛ وهم يحتفظون على بَقِيَّة سلطنتهم، ويكتفون بشرف خدمَة نفس الْحَرَمَيْنِ، وَبِذَلِك يَتَّقُونَ الله فِي الْإِسْلَام وَالْمُسْلِمين))[1].

ففي هذا النص بيان نشأة الدولة العثمانية على حساب العرب العباسيين في المشرق بإسقاط الخلافة العربية الإسلامية، والعرب في الأندلس الأموية بتسليمهم للفرنجة يبقرون بطون النساء ويذبحون الرجال والأطفال، ولا يُعفى أهلُ الأندلس الذين قدموا المذهب على الدين، والقبيلة على الأمة من اللوم؛ فساروا بأنفسهم إلى التهلكة. ودعا الأتراك لترك القيادة للعرب، من غير أن يحسب حساباً لوعي العرب لتخلف القرون الأربعة التي تركتهم على هامش التاريخ..

فهو يقدم رؤى للواقع السياسي تبشره بالتفكك والسقوط، مما يجعل الحلفاء في إغارتهم على الدولة العثمانية في مأمن من العرب، وقد أوضح الكواكبي براءتهم مما يفعل الترك داخلياً وخارجيا باسم الإسلام. وهيأ بذلك الطريق لإقامة خلافة عربية وسلطنة عثمانية، لكن الغرب تخطى بالعرب مفهوم الخلافة إلى الدويلات القطرية باتفاقية سايكس - بيكو لأنه يحمل لهم جرثومة الكيان الصهيوني ليزرعها في القلب..من بعد.

وأما وعيه الاجتماعي فنابتٌ من انتسابه لبيت النبوة، والدولة التركية تقرب المنسوبين، وتوليهم الوظائف. وتقلبه في مناصب متعددة في عرض

---

(١) أم القرى: ٢١١.

حياته يومئ إلى ذلك، ومن هذه الجهة تبين أن الأتراك يقربون ذوي الأنساب لتخدير العوام بذلك، وكذلك حدد رؤيته إلى الدين في ضوء تجارب الأمم التي سبقت إلى توظيف الدين في إبعاد الاستبداد بقوله:

((والحاصل أنَّ كل المدقِّقين السّياسيين يرون أنَّ السّياسة والدّين يمشيان متكاتفَينِ، ويعتبرون أنَّ إصلاح الدّين هو أسهل وأقوى وأقرب طريق للإصلاح السّياسي.

وربما كان أوّل من سلك هذا المسلك؛ أي استخدم الدِّين في الإصلاح السّياسي؛ هم حكماء اليونان، حيث تحيَّلوا على ملوكهم المستبدِّين في حملهم على قبول الاشتراك في السّياسة بإحيائهم عقيدة الاشتراك في الألوهية، أخذوها عن الآشوريين، ومزجوها بأساطير المصريين بصورة تخصيص العدالة بإله، والحرب بإله، والأمطار بإله، إلى غير ذلك من التّوزيع، وجعلوا لإله الآلهة حقّ النّظارة عليهم، وحقّ التّرجيح عند وقوع الاختلاف بينهم. ثمَّ بعد تمكُّن هذه العقيدة في الأذهان بما أُلبست من جلالة المظاهر وسحر البيان سَهُلَ على أولئك الحكماء دفعهم النّاس إلى مطالبة جبابرتهم بالنّزول من مقام الانفراد، وبأنْ تكون إدارة الأرض كإدارة السّماء، فانصاع ملوكهم إلى ذلك مُكْرهين. وهذه هي الوسيلة العظمى التي مكَّنت اليونان أخيراً من إقامة جمهوريات أثينا وإسبارطة، وكذلك فعل الرّومان. وهذا الأصل لم يزل المثال القديم لأصول توزيع الإدارة في الحكومات الملكية والجمهوريات على أنواعها إلى هذا العهد))(١).

---

(١) طبائع الاستبداد: ٤٩.

فهذا الكلام يجعل الديمقراطية التعددية مبنية على عقائد تؤمن بتعدد الآلهة، ولا تؤمن بالوحدانية التي جاء بها الإسلام، على وجود كبير لهم يخضعون له إذا اختلفوا، ويراقبهم إذا تصرفوا، ويختص كل واحد منهم بجهة من شؤون البشر، وجعل يونان مستعيرين فكرة تخصص الآلهة والإله الأكبر من الحضارة الفرعونية، وجعل الحضارة الفرعونية مقتدية بالآشوريين، على طريقة تأصيل الفكرة بعودة جذورها إلى المنطقة، وهي ظلال لفكرة الولاية التكوينية لأهل القبور على الكون.. وفي ظل هذا التصور نشأت فكرة الديمقراطية الغربية مما ليس في تصور المسلمين لله الواحد الأحد، وهو كلام خطير من جهة ربط السلوك بالاعتقاد وتصور الوجود وآلية عمله.

فالدين عنده في خدمة السياسة، وليست السياسة في خدمة الدين فثمة فرق بين الأمرين ظاهر للعيان، يبدي موقع الدين من رؤية الكواكبي له.

وأما رؤيته الكلية فمحكومة بالأطوار الطبيعية للتفكير البشري، وذلك في قوله: ((**ليس لنا مدرسة أعظم من التاريخ الطبيعي، ولا برهان أقوى من الاستقراء، مَن تتبَّعها يرى أنَّ الإنسان عاش دهراً طويلاً في حالة طبيعية تسمَّى«دور الافتراس»**[1]**، فكان يتجوَّل حول المياه أسراباً تجمعه حاجة الحضانة صغيراً، وقصد الاستئناس كبيراً، ويعتمد في رزقه على**

---

(١) انظر: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لأبي زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي الشهير بابن خلدون(٧٣٢ -٨٠٨هـ)، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، عَمَّان والرياض -بيت الأفكار الدولية، [د.ت]: ٩٠.

النبات الطبيعي وافتراس ضعاف الحيوان في البرِّ والبحر، وتسوسه الإرادة فقط، ويقوده من بنيته أقوى إلى حيثُ يكثر الرزق.

ثم ترقَّى الكثير من الإنسان إلى الحالة البدوية التي تسمّى «دور الاقتناء»: فكان عشائر وقبائل، يعتمد في رزقه على ادِّخار الفرائس إلى حين الحاجة، فصارت تجمعه حاجة التحفُّظ على المال العام والأنعام، وحماية المستودعات والمراعي والمياه من المزاحمين، ثمَّ انتقل - ولا يُقال ترقّى - قسم كبير من الإنسان إلى المعيشة الحضرية: فسكن القرى يستنبت الأرض الخصبة في معاشه، فأخصب، ولكن؛ في الشقاء، ولعلَّه استحقَّ ذلك بفعله؛ لأنَّه تعدَّى قانون الخالق، فإنَّه خلقه حرّاً جوَّالاً، يسير في الأرض، ينظر آلاء الله، فسكنَ، وسكن إلى الجهل والذُّلّ، وخلق الله الأرض مباحةً، فاستأثر بها، فسلَّط الله عليه من يغصبها منه ويأسره. وهذا القسم يعيش بلا جامعة، تحكمه أهواء أهل المدن وقانونه: أن يكون ظالماً أو مظلوماً.

ثمَّ ترقّى قسم من الإنسان إلى التصرُّف إمّا في المادة وهم الصُّناع، وإمَّا في النظريات وهم أهل المعارف والعلوم.

وهؤلاء المتصرِّفون هم سكان المدن الذين هم إنْ سجنوا أجسامهم بين الجدران، لكنهم أطلقوا عقولهم في الأكوان، وهم قد توسَّعوا في الرِّزق كما توسَّعوا في الحاجات، ولكنَّ أكثرهم لم يهتدوا حتى الآن للطريق المثلى في سياسة الجمعيات الكبرى. وهذا هو سبب تنوُّع أشكال الحكومات وعدم استقرار أمَّةٍ على شكل مُرضٍ عام. إنَّما كلُّ

الأمم في تقلُّباتٍ سياسية على سبيل التجريب، وبحسب تغلُّب أحزاب الاجتهاد أو رجال الاستبداد))[1].

فالتاريخ الطبيعي أوثق من الروايات التي بني عليها دين الأمة العربية، فقد أبان أن الإنسان عاش طور الافتراس في الطبيعة يأكل ما تيسر له، وكل شيء مشاع له في الطبيعة.

ثم عاش الحياة الجماعية ولجأ إلى الكهوف فعرف نوعاً من الادخار مما يصيد أو التمول.

ثم عاش حياة القرى الزراعة وحياة المدن فبرزت الصناعات وظهرت التأملات وعلوم التأمل.. ثم البحث عن نظام مدني. ولم نجد إشارة للدين بعيدا عن التأملات التي صرفته لخدمة الإقطاع في القرى، وخدمة رأس المال في المدن.

ومن لم يدرك هذه الأولية المهمة في رؤيته لا يدرك مقاصده من الحديث عن الأديان مستثنياً الإسلام في أمرين: إعجاز القرآن، وتسامح الإسلام في تعدد الرؤى. وجعل السعي منصرفاً إلى الإنسانية وصوالحها في حمايته بإغلاق سبل الاستبداد، وستأتي في مناقشة ظاهرة الاستبداد.

وأما رؤيته للإسلام فقد قال: **((أما الأديان المبنية على العقل المحضّ كالإسلام الموصوف بدين الفطرة، ولا أعني بالإسلام ما يدين**

---

(١) طبائع الاستبداد: ١٧١.

به أكثر المسلمين الآن، إنَّما أريد بالإسلام: دين القرآن؛ أي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كلُّ إنسانٍ غير مقيَّد الفكر بتفصُّح زيد أو تحكُّم عمرو.

فلا شك أنَّ الدِّين إذا كان مبنياً على العقل، يكون أفضلَ صارفٍ للفكر عن الوقوع في مصائد المخرِّفين، وأنفع وازع بضبط النَّفس من الشطط، وأقوى مؤثِّر لتهذيب الأخلاق، وأكبر معين على تحمُّل مشاقّ الحياة، وأعظم منشِّط على الأعمال المهمَّة الخطرة))[1]. فقد أسقط رؤية العامة الجامعة بين الدين والخرافات باسم الكرامات، واكتناه الغيب، وأسقط رؤية العالم النجدي التي قوامها القرآن والسنة الصحيحة، فجعلها قاصرة على القرآن، فأسقط قرآن التشريع بإغفال ذكره، والإشارة إلى قرآن الإعجاز دون غيره، وجعل العقل حكماً في فهم الدين كما في الأطوار الحيوية تاريخياً، وكشف عن الفصل بين الدين والملك في موضع آخر[2].

وأما الشورى فقد جعل رؤيته فيها على لسان أمير جليل التقاه الصاحب بعد انفضاض اجتماع أم القرى فكان لاحقة طربت لها نفس الكواكبي بقوله: **((أما وظائف الشورى الْعَامَّة فَيَقْتَضِي أَن لَا تخرج عَن تمحيص أُمَّهَات الْمَسَائِل الدِّينِيَّة الَّتِي لَهَا تعلق مُهِمّ فِي سياسة الْأمة، وتأثير قوي فِي أخلاقها ونشاطها. وَذَلِكَ: مثل فتح بَاب النّظر**

(١) طبائع الاستبداد: ١٤٥.

(٢) انظر: أم القرى: ٢٠٢.

وَالِاجْتِهَاد، تمحيصاً للشريعة، وتيسيراً للدّين، وسد أَبْوَاب الحروب والغارات والاسترقاق اتبَاعا لمقتضيات الْحِكْمَة الزمانية.

وكفتح أَبْوَاب حسن الطَّاعَة للحكومات العادلة والاستفادة من إرشاداتها وَإِن كَانَت غير مسلمة، وسد أَبْوَاب الانقياد الْمُطلق، وَلَو لمثل عمر بن الْخطاب - رَضِي الله عَنهُ - وكفتح بَاب أَخذ الْعُلُوم والفنون النافعة وَلَو عَن الْمَجُوس، وسد بَاب إِضَاعَة الْأَوْقَات بالعبث، وَنَحْو ذَلِك من أُمَّهَات المنجيات والمهالك))[١].

في هذا الكلام دعوة لتجديد الخطاب الديني جاعلاً مشروعه مبنياً على إعادة النظر في الأحكام التشريعية بغية التسهيل على الناس، وتطويع الأحكام لواقع الناس، واتخاذ طريق الاجتهاد في فهم النص مجرداً من سياقه التاريخي، وتوجيهه نحو تجديد الدلالة في فضاء العربية، والاجتهاد في تقييد المطلق، وإطلاق المقيد ليناسب أغراض الواقع السياسي.

فجعل الأول تمحيصاً ينفي ما لا يقبله الواقع أو يقر به العقل، وجعل الثاني تيسيراً على الناس. والرجل تخطَّى هذه الدعوة في سبيل التخلص من الاستبداد بإقامة الدولة العادلة بالقوانين الوضعية ساكتاً عن النصوص الدينية[٢] لما وجده من تعارض حاد بين الهيئات والجماعات الدينية الإسلامية من تعارض في فقه الدين وأحكامه. وجعل الطاعة واجبة للحكومات العادلة مهما تكن عقيدتها أو رؤيتها،

---

(١) أم القرى: ٢٠٩.

(٢) انظر: طبائع الاستبداد: ١٧٣.

في تمهيد لكل غاز يدعي العدالة، وينوي تحطيم الدولة الظالمة.. التركية مثالا، ومن هنا تفهم التعاطف بينه وبين السلفية النجدية واليمنية اللتين كانتا بعيدتين من الدولة التركية تفكيرا وولاء، وكان الغرب يجهز تيجان الملك لحاملي هاتين الجهتين من التفكير.

المهم أن رؤية الكواكبي لمستقبل الدولة العثمانية جاءت سابقة على الواقعة تحت إنذارات الغرب وقد أدرك تذمر الشعوب تحت سلطان الأتراك.

وأراد بسد أبواب الحروب الوقوف على آيات الجهاد وتوجيهها إلى العموم، يدلك على ذلك قوله: ((**إذا تتبعنا كل مَا ورد فِي الإسلامية حاثاً على الزّهْد، نجده موجها إِلَى التَّرْغِيب بالأثرة الْعَامَّة، أَي بتحويل الْمُسلم ثَمَرَة سَعْيه للمنفعة العمومية دون خُصُوص نَفسه، حَتَّى أَن كل مَا ورد فِي الْحُث على الْجِهَاد فِي سَبِيل الله مُرَادٌ بِه سعي الْمُؤمن بِكُل الْوَسَائِل، حَتَّى ببذل حَيَاته، لإعزاز كلمة الله وَإِقَامَة دينه، لَا فِي خُصُوصِيَّة محاربة الْكفَّار كَمَا تتوهم الْعَامَّة؛ كَمَا أَن الْمُرَاد من محاربة الْكفَّار هِيَ من جِهَة إعزاز الجامعة الإسلامية، وَمن [جهة] أُخْرَى خدمَة الجامعة الإنسانية من حَيْثُ إلجاء الْكفَّار إِلَى مُشَاركَة الْمُسلمين فِي سَعَادَة الدَّاريْنِ؛ لِأَن للأمم المترقية علماً ولَايَة طبيعية على الْأُمَم المنحطة، فَيجب عَلَيْهَا إنسانية أَن تهديها إِلَى الْخَيْر وَلَو كرها باسم الدّين أَو السياسة**))[1].

---

(١) أم القرى: ٢٥.

وهو كلام ساقه على لسان البليغ القدسي ليدفع به مقولة الغرب أن الدين الإسلامي قائم على مجاهدة الكفار ليكونوا مسلمين، وكشف عن دوافع الجهاد بالدفع، وجعل الجهاد مفهوماً في باب إيثار الصوالح العامة على الصوالح الشخصية، وليس بالسلاح دوماً بناء على قوله تعالى: **{وقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}**[1].

والآية صريحة الدلالة على حرية الدعوة لبيان طريق الناس، ولا إكراه في أمر اعتقادهم. والكواكبي بهذا يرسل رسائل اطمئنان للغرب في حربه على السلطنة آنئذٍ تفيد براءة الإسلام والعرب مما يصنع الترك في سياساتهم مما يوجب على الغرب ألا يحملهم جريرة غيرهم.

الاستبداد:

وقف الكواكبي على المستبد، وفق الأطوار الطبيعية للواقع التاريخي، ووجده خاصاً بالمجتمعات المدنية دون البدوية؛ لأن البدوي يستطيع الهجرة في أي وقت يريد[2] في زمن الكواكبي فجعل الحرية لصيقة بالنظام القبلي في جزيرة العرب غافلاً عن الحدود التي نشأت ببركات سايكس - بيكو وحماية الأنظمة العربية لها فاستوت ملامح

(١) سورة الكهف: ٢٩.

(٢) انظر: طبائع الاستبداد: ٤٠.

المواطنة في إطار الحدود الجديدة بعد انتهاء الحكم التركي، فسقطت رؤيته بأن البدوي يستطيع الإفلات من المستبد بالهروب.

وبحث في العوامل التي ساعدت على إيجاد الاستبداد واستمراره مئات السنين، فكانت سبباً في ظهوره، وهي: ١ - الدين، ٢ - العلم، ٣ - المجد، ٤ - المال، ٥ - الأخلاق، ٦ - التربية، ٧ - الترقي. ثم أردف ذلك بسبل الخروج من قيود المستبد إلى الحرية.

الاستبداد لغة:

الكلام على المعنى اللغوي يكشف عن الجزء المشترك بين الدلالة اللغوية والدلالة الاصطلاحية، وما تخير الباحثون لفظاً من اللغة إلا وجدوا هناك مناسبة بين الدلالة التواضعية والدلالة اللغوية، فقالت العرب:

(([بدد] بَدَّهُ يَبُدُّهُ بَدّاً: فرَّقه. والتبديد: التفريق. يقال: شملٌ مُبَدَّدٌ. وتبدد الشئ: تفرق. والبدة، بالكسر: القوّة. والبِدَّةُ أيضاً: النصيب. تقول منه: أَبَدَّ بينهم العطاءَ، أي أعطى كلَّ واحدة منهم بِدَّتَهُ. وفي الحديث:«أَبِدِّيهِمْ تمرةً تمرةً»[1]. يقال في السخلتين: أبدهما نعجتين، أي اجعل لكل واحد منهما نعجمة ترضعه، إذا لم تكفهما نعجة واحدة. وأَبَدَّ يدَه إلى الأرض: مدَّها. واسْتَبَدَّ فلانٌ بكذا، أي انفرد به.

(١) شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي(-٤٥٨هـ)، تحقيق: د.عبد العلي عبد الحميد حامد، الرياض - مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م: ٥ /١٣٢، ح:٣١٨٩ .

والبَدادُ، بالفتح، البِرازَ. يقال: لو كان البَدادُ لما أطاقونا، أي لو بارَزَنا هم رجلٌ ورجلٌ.))(1)

فأول المعاني الفرقة والتفريق، فالجماعات المتفرقة طواعية تمهد للمستبد بالظهور، والجماعات التي تقبل بتفريق المستبد لها تصبح مطية سهلة له، يستخدم هذا الفريق ضد ذاك الفريق طوراً، ويستخدم ذاك الفريق ضد هذا الفريق طوراً ثانياً، وقد يستخدمهما معاً ضد فريق ثالث لا يأخذ بذيول الفريقين. وفي الطبيعة يتبدد حليب العنز بين سخلتين، فيكون الاستبداد بعيش فريق من الناس على مخصصات فريق آخر.. والاستبداد انفراد بأمر دون سائر الناس المشاركين فيه حقاً واجباً، أو إباحة..

أولاً: الدين:

المسألة أن الكواكبي يرى الدين سبباً من أسباب عدة تسهم في تمكين المستبد من رقاب الناس، ويراه وسيلة للخلاص، فكيف كان ذلك؟

الأخوة بين الدين والاستبداد:

يرى الكواكبي العلاقة بين الدين والاستبداد بقوله: **((تضافرت آراء أكثر العلماء النّاظرين في التّاريخ الطّبيعي للأديان، على أنَّ الاستبداد السّياسي مُتَوَلِّد من الاستبداد الدِّيني، والبعض يقول: إنْ لم يكنْ هناك توليد فهما**

---

(1) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (-393هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت - دار العلم للملايين، ط4، 1407هـ - 1987م: (بدد) 2 / 444.

أخوان؛ أبوهما التَّغلب وأمّهما الرّياسة، أو هما صنوان قويّان؛ بينهما رابطة الحاجة على التّعاون لتذليل الإنسان، والمشاكلة بينهما أنَّهما حاكمان؛ أحدهما في مملكة الأجسام، والآخر في عالم القلوب. والفريقان مصيبان بحكمهما بالنّظر إلى مغزى أساطير الأوّلين، والقسم التّاريخي من التّوراة، والرّسائل المضافة إلى الإنجيل. ومخطئون في حقّ الأقسام التّعليمية الأخلاقية فيهما، كما هم مخطئون إذا نظروا إلى أنَّ القرآن جاء مؤيّداً للاستبداد السّياسي))[1].

الاستبداد والدين يتسلطان على الإنسان ويقسمانه إلى شطرين: أحدهما يتناول البدن، ويتسلط عليه المستبد (الإقطاعي، الرأسمالي، الحاكم) والآخر نفسي يتسلط عليه الكاهن أو عالم الدين فيقدم له المخدر باسم الدين والصبر والزهد بالدنيا وما فيها، وتركها لأهل النار يملكونها اليوم، والضعفاء يأخذون الجنة في الآخرة غداً، وأنت تسمع الوعاظ والكهان معاً، يقولون: إما الدنيا وإما الآخرة، ولا يجتمعان.. ويرى أن علماء التاريخ الطبيعي يصيبون الحقيقة بالنظر إلى الجهة التاريخية من التوراة والرسائل الملحقة بالإنجيل، ولا يمكن أن يكون أولئك المؤرخون لم ينظروا في الكتب المقدسة، وهم ينظرون إلى أدعياء هذه الكتب، وهم يتعلقون بما وقع، وليس بما هو متوقع، وأن الكتب المقدسة قد تغيرت دلالات نصوصها أو حرّفت، وبقيت القيم الأخلاقية خادمة للاستبداد بصوره كلها، وهي التي ظن الكواكبي أنها سلمت من التزييف والتطويع، ولم يكن دفاعه عن القرآن قوياً بعدما قدمنا موقفه في تأصيل التاريخ

---

(١) طبائع الاستبداد: ٤٥.

الطبيعي وتوثيقه وأنه يصف الواقع. ولعل نسبه للعرب ولآل البيت دفعه لإبداء حجته المعترضة بوهنها على قاعدة استخرجها المؤرخون الطبيعيون للأديان، وهم أعلم منه بما أشار إليه من وجوب الاحتراس منه من جهة براءة القيم الأخلاقية في الأديان من التزييف، وبراءة الإسلام من مساندة الاستبداد؛ لأن فهم الناس له ليس واحداً.

وأبطل اعتراضه آنفاً، وهو يثبت بعدئذ مراقبة أهل الدين من الكهان والعلماء بقوله: **((وهؤلاء المهيمنون على الأديان كم يرهِّبون النّاس من غضب الله وينذرونهم بحلول مصائبه وعذابه عليهم، ثمَّ يرشدونهم إلى أنْ لا خلاص ولا مناص لهم إلا بالالتجاء إلى سكان القبور الذين لهم دالة، بل سطوة على الله فيحمونهم من غضبه.**

ويقولون: إنَّ السّياسيين يبنون كذلك استبدادهم على أساسٍ من هذا القبيل، فهم يسترهبون النّاس بالتّعالي الشّخصي والتّشامخ الحسّي، ويُذلِّلونهم بالقهر والقوّة وسلبِ الأموال حتَّى يجعلوهم خاضعين لهم، عاملين لأجلهم، يتمتَّعون بهم كأنَّهم نوع من الأنعام التي يشربون ألبانها، ويأكلون لحومها، ويركبون ظهورها، وبها يتفاخرون.

ويرون أنَّ هذا التَّشاكل في بناء ونتائج الاستبدادَيْن؛ الدِّيني والسّياسي، جعلهما في مثل فرنسا خارج باريس مشتركَيْن في العمل، كأنَّهما يدان متعاونتان، وجعلهما في مثل روسيا مشتبكَيْنِ في الوظيفة، كأنَّهما اللوح والقلم يُسجِّلان الشقاء على الأمم))[1].

(١) طبائع الاستبداد: ٤٦.

أولا: فكرة الترهيب من الله وغضبه فكرة مشتركة بين الأديان السماوية ولا معنى لاستثناء الإسلام منها في الأمثلة التطبيقية (باريس وروسيا) فإن استنبول لا تقل عن أي منهما، واستثمارها عند رجال الدين تجده في قول ذي النون المصري: ((**مُعَاشَرَةُ الْعَارِفِ كَمُعَاشَرَةِ اللهِ يَحْتَمِلُكَ وَيَحْلُمُ عَنْكَ تَخَلُّقًا بِأَخْلَاقِ اللهِ الْجَمِيلَةِ**))(1) فالعارف بالله نِدٌّ له في صفتي الاحتمال للمريد، والصبر علَيه، والعارف يأخذ صفات الله الجميلة ويترك له غيرها. ويتابع الكواكبي علماء الاستبداد بقوله:

((وليس بالأمر الغريب ضياع معنى {وأُولي الأمر} على كثير من الأفهام بتضليل علماء الاستبداد الذي يحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه، وقد أغفلوا معنى قيد {منكم}؛ أي المؤمنين منعاً لتطرُّق أفكار المسلمين إلى التفكير بأنّ الظالمين لا يحكمونهم بما أنزل الله، ثمَّ التدرُّج إلى معنى آية {إن الله يأمر بالعدل}، أي بالتساوي؛ {وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل}، أي التساوي؛ ثمّ ينتقل إلى معنى آية: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}. ثمَّ يستنتج عدم وجوب طاعة الظالمين، وإن قال بوجوبها بعض الفقهاء الممالئين دفعاً للفتنة التي تحصد أمثالهم حصداً. والأغرب من هذا جسارتهم على تضليل الأفهام في معنى (أمر) في آية: {وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمَّرناها تدميراً}؛ فإنهم لم يبالوا أن ينسبوا إلى الله

(1) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحق بن موسى بن مهران الأصفهاني(-٤٣٠هـ)، القاهرة -دار السعادة، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م: ٩ / ٣٧٦.

الأمـر بالفـسق... تعـالى الله عـن ذلـك علـوّاً كبـيراً، والحقيقـة في معنـى (أمرنا) هنـا أَنَّـه بمعنـى أَمَّرنـا - بكـسر المـيم أو تـشديدها -؛ أي جعلنـا أمراءها مترفيها ففسقوا فيها (أي ظلموا أهلها) فحقّ علـيهم العـذاب؛ أي (نزل بهم العذاب)...))[1].

فقراءة علماء السلطان العثماني للقرآن تـدعو إلى طاعـة ولي الأمـر مهـما يكن متغلباً أو غير متغلب لقولـه: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ}**[2] فأسقطوا شرط الإيـمان الموجب لتكليف الطاعة بإغفالهم لفظ (منكم) فأوجبوا طاعة لله وأخرى للرسول وثالثـة لأولي الأمر منهم، وطبعاً لم يدركوا تقدم طاعة الله على طاعـة الرسـول، وطاعـة ولي الأمر، وقد غفلوا عن قـول الخليفـة العـربي أبي بكـر الـصديق: ((أطيعـوني مـا أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فـلا طاعـة لي علـيكم))[3] فقـدم طاعـة الله، وطاعـة الرسـول عـلى طاعـة ولي الأمـر، وسـبق تنويـه الكـواكبي بوجوب طاعة الدولة العادلة من غير النظر إلى دينها أو قوميتها.

وجعلوا ما يجري للناس من الهـلاك منسوباً إلى الله نفسه، ولـيس إلى المستبد المترف؛ لأنهم يجدون المستبد منفذاً لحكـم الله فـيهم، محتجـين

---

(١) طبائع الاستبداد: ٥٣.

(٢) سورة النساء: ٥٩.

(٣) تخريج الدلالات السمعية على ما كـان في عهـد رسـول الله مـن الحـرف والـصنائع والعمالات الشرعية، لعلي بن محمد بن أحمد بن موسى بـن مـسعود، أبي الحـسن بـن ذي الوزارتين الخزاعي (-٧٨٩هـ) تحقيق: د.إحسان عباس، بـيروت - دار الغـرب الإسلامي، ط٢، ١٤١٩هـ: ٤٢.

بقوله –تعالى: **{وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}**[١] ووجد الكواكبي مخرجاً في قراءة (أمرنا) على أنها (أَمِرنا) جعلنا مترفيها كثيرين[٢] أمراء لها، وقدر لها وجهاً على أنها (أَمَّرنا)[٣] أي جعلناهم أمراء وحكاماً، فكان الإهلاك إرادة لله بالقرية وأهلها، وكان السبيل إلى ذلك بعلو المترفين قيادة تلك القرية؛ فخرجوا على أمر الله (ففسقوا) فكان ذلك سبباً للانتقام منهم بتدمير بلدهم أو قريتهم.

بل رأى الكواكبي أن المعممين المحيطين بالسلطان هم أساس الداء والبلاء لقوله: ((**وَمن أهم دسائس المتعممين، أَنهم ينفثون فِي صُدُور الْأُمَرَاء: لُزُوم الِاسْتِمْرَار على الِاسْتِقْلَال فِي الرَّأْي، وَإِن كَانَ مضراً،**

ومعاداة الشورى وَإِن كَانَت سنة،

والمحافظة على الْحَالة الْجَارِيَة، وَإِن كَانَت سَيِّئَة،

ويلقون عَلَيْهِم بِأَن مُشَاركَة الْأمة فِي تَدْبِير شؤونها، وَإِطْلَاق حريَّة الانتقاد لَهَا، يخل بنفوذ الْأُمَرَاء، وَيُخَالف السياسة الشَّرْعِيَّة؛ ويلقنونهم حجَجاً واهنة، لَوْلَا أَن أمامها جهل الْأمة، ووراءها سطوة الْإِمَارَة، لما تحركت بهَا شفتان، وَلَا تردد فِي ردهَا إِنْسَان. وَالْأَمر أَن أُولَئِكَ الْأُمَرَاء

---

(١) سورة الإسراء: ١٦.

(٢) انظر: معجم القراءات، د.عبد اللطيف الخطيب، دمشق – دار سعد الدين للطباعة والنشر، [د.ت]: ٥ / ٣١.

(٣) لم أجدها قراءة، ولو سمعتها وأنا طفل في بعض مجالس العلم.

يقتبسون من هَذِه الْحجَج، مَا يتسلحون بِهِ فِي مُقَابلَة من يعْتَرض على سياستهم من الدول الْأَجْنَبِيَّة، بقَوْلهمْ: إِن قَوَاعِد الدّين الإسلامي لَا تلائم أُصُول الشورى، وَلَا تقبل النظام والترقيات المدنية، وأنهم مغلوبون على أَمرهم، ومضطرون لرعاية دين رعاياهم، ومجاراة ميل الْفِكر الْعَام))[1].

فأهل الحل والعقد يطالبون الحاكم بالإصرار على موقفه ولو خالف السنة الصحيحة في الشورى، ويطالبونه بالإصرار على دوام الحال، لتدوم لهم صوالحهم، ويهددونهم بضياع هيبتهم وسلطانهم إذا أشركوا الشعب في حكمهم، ويلقنونهم حججاً من الروايات الضعيفة يواجهون بها الداخل الساخط على سياساتهم والغرب الناقد والموجه لها أيضاً، وتظهر مقولة أن الحكومة متقدمة على شعوبها، ومضطرة لمجاراة تلك الشعوب المتخلفة بسبب من تفكيرها الديني، فيقال: الدولة متقدمة على شعبها من جهة رغبتها بالتغيير والتغريب، وشعبها يعوق حركتها.

والكواكبي يرى أن الدين عند علماء المسلمين: إما وسيلة للخلاص الفردي كالشافعي والصوفية، وساق ذلك على لسان العلامة المصري بقوله:

((وَفِيمَا يلوح لي أَن منشأ ذَلِك فِينَا جملَة أُمُور مِنْهَا: كَون عُلَمَاء الشَّافِعِيَّة بعيدين عَن الأمامة والسياسة الْعَامَّة إِلَّا عهدا قَصِيرا؛

---

(١) أم القرى: ٤٥.

وَمِنْهَا كَون الْمَذْهَب الشَّافِعِي مؤسسا على الْأَحْوَط والأكمل فِي الْعِبَادَات والمعاملات، أَي على العزائم دون الرُّخص؛ وَمِنْهَا كَون الْمَذْهَب مَبْنِيا على مزِيد الْعِنَايَة فِي النيات. بِنَاء عَلَيْهِ، فالشافعي فِي شغل شاغل بخويصة نَفسه، وهَمٍّ مُسْتَمر من جِهَة دينه، ومحمول على تَصْحِيح النيات وتحسين الظنون، وَمن كَانَ كَذَلِك مَال بالطبع إِلَى الزّهْد والإعجاب بالزاهدين، وَحمل أَعمال المتظاهرين بالصلاح على الصِّحَّة وَالْإِخْلَاص))[1].

فالشافعي والصوفية همهم الخلاص الفردي واتخاذ الأحوط وإحسان الظن بالناس ونياتهم، وهو يلوح أن هناك أناساً يفكرون بالخلاص الجماعي لهم ولأمتهم كلها.. مما يجعل المرء أمام تضارب في أفهام العلماء وتوجهاتهم بالدين والناس.. وفسر مذهب الشافعي بعزلته عن الحكام وسياسات الدولة.

وإما وسيلة للخلاص الجماعي، وهو ما يراه الكواكبي ودعاة الإسلامية على أساس مراعاة حماية النفس والمصلحة وتقديمهما على أي اعتبار آخر.

والكواكبي بعرضه لما يفهمه الفرقاء والفقهاء من القرآن، يحاول الوقوف محايداً في عرض الحجج، ويبسط القول في عرض الشبهات، ويقتضبه بعزل القرآن عن الاستبداد وعلمائه، وتبرئته، بقسط ضعيف من المنطق.

---

(١) أم القرى: ٨٦.

العلم في الاستبداد:

جاء عرض حال العلم وأهله على لسان المولى الرومي (التركي):

((فَإِن هَؤُلَاءِ المتعممين فِي الْبِلَاد العثمانية كَانُوا اتَّخذُوا لأَنْفُسِهِمْ قانونا سموهُ (طَرِيق العلمَاء)، وَجعلُوا فِيهِ من الْأُصُول مَا أنتج مُنْذُ قرنين إِلَى الْآن، أَن يصير الْعلم منحة رسمية تُعْطى للجهال، حَتَّى للأميين، بل وللأطفال.

ويترقى صَاحبهَا فِي مَرَاتِب الْعلم وَالْفضل والكمال، بِمُجَرَّد تقادم السنين أَو ترادف العنايات، لَا سِيمَا إِذا كَانَ من زمرة (زَاد كَانَ)، أَي الاصلاء، فَإِنَّهُ يكون طفْلا فِي المهد، وينعت فِي منشوره الرسمي من قبل حَضْرَة السُّلْطَان بِأَنَّهُ: (أعلم الْعلمَاء الْمُحَقِّقين)؛ ثمَّ يكون فطيما فيخاطب بِأَنَّهُ: (أفضل الْفُضَلَاء المدققين)؛ ثمَّ يصير مراهقاً فَيعْطى المولوية، وَيشْهد لَهُ بِأَنَّهُ: (أقضى قُضَاة الْمُسلمين، مَعْدن الْفضل وَالْيَقِين، رَافع إِعْلَام الشَّرِيعَة وَالدّين، وَارِث عُلُوم الْأَنْبِيَاء وَالْمُرْسلِينَ) ثمَّ وَثمّ حَتَّى يُصَدّرَ فيوصف: (بِأَعْلَم الْعلمَاء المتبحرين، وَأفضل الْفُضَلَاء المتورعين، ينبوع الْفضل وَالْيَقِين) إِلَى آخر مَا فِي المناشير من الْكَذِب المشين!))[1]

إذن صار العلم تسمية يمنحها السلطان للأطفال والكبار ولم يأتِ أطواراً من التعلم والإجازات من العلماء، فصار العلم ألقاباً وأوصافاً يمنحها السلطان، وتؤلف غطاء لحاملها في تولي المناصب والمهام بها، وهو ليس بشيء، وشهادات السلطان به من باب شهادات الزور، ومن باب الكذب المشين لصاحبه.

---

(١) أم القرى: ٤٢.

الجهل والعلم:

تقدمت الإشارة إلى أن العلم لم يعد طلباً ولا دراسة ولا بحثاً ولا كتابة ولا منهجاً يتبعه الباحثون في الوصول إلى حقائق الأمور في الحياة، لكن الكواكبي يرى جور المستبد في العلاقة بين الجهل وإدارة الدولة بقوله:

((من أقبح أنواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم، واستبداد النّفس على العقل، ويُسمّى استبداد المرء على نفسه...))(١).

هذا يعني ضياع تكافؤ الفرص فيقدم الجاهل على العالم، ويصير قائدا، والعالم خاضعاً له، فتستدير الحياة من النور إلى الظلام، والغلبة لذي القرار والسلطة، وهو في جهله أعمى لا يرى ما يراه أهل العلم، بل يسير بظنونه وجهله.. فيعلو الجاهل بنسبه أو ماله أو قرابته من ذي نفوذ فيكون علو الجهل على العلم بارتقاء الجهال، وارتقاء النفس بعواطفها وغرائزها على العقل في تولي إدارات الدولة، فتنهار الدولة في عيون رعيتها وتسقط مهابتها من النفوس.

المستبد والعلوم:

الكلام على علاقة المستبد بعلوم العربية، في صورتها النظرية المجردة، وفي صورتها التطبيقية الأدبية، وقد وجد الكواكبي المستبد يبني علاقته بها على أساس من إفادتها له أو إضرارها به، وذلك في قوله: **((لا يخاف علم اللغة إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية، أو سحر بيان يحلُّ**

---

(١) طبائع الاستبداد: ٤٢.

عقد الجيوش؛ لأنه يعرف أنّ الزمان ضنينٌ بأن تلد الأمهات كثيراً من أمثال: الكميت وحسان أو مونتيسكيو وشيللر.

وكذلك لا يخاف المستبدُّ من العلوم الدينية المتعلِّقة بالمعاد، المختصة ما بين الإنسان وربه، لاعتقاده أنّها لا ترفع غباوةً ولا تزيل غشاوة، إنما يتلهّى بها المتهوِّسون للعلم، حتى إذا ضاع فيها عمرهم، وامتلأتها أدمغتهم، وأخذ منهم الغرور، فصاروا لا يرون علماً غير علمهم، فحينئذٍ يأمن المستبدُّ منهم كما يُؤمن شرُّ السّكران إذا خمر.

على أنّه إذا نبغ منهم البعض ونالوا حرمة بين العوام لا يعدم المستبدّ وسيلة لاستخدامها في تأييد أمره ومجاراة هواه في مقابلة أنّه يضحك عليهم بشيء من التعظيم، ويسدُّ أفواههم بلقيماتٍ من مائدة الاستبداد؛ وكذلك لا يخاف من العلوم الصناعية محضاً؛ لأنّ أهلها يكونون مسالمين صغار النّفوس، صغار الهمم، يشتريها المستبدُّ بقليل من المال والإعزاز، ولا يخاف من الماديين، لأنّ أكثرهم مبتلون بإيثار النّفس، ولا من الرياضيين؛ لأنّ غالبهم قصار النظر.

ترتعد فرائص المستبدُّ من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنية، والتاريخ المفصّل، والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تُكبر النفوس، وتوسّع العقول، وتعرّف الإنسان ما هي حقوقه وكم هو مغبون فيها...))[1].

---

(١) طبائع الاستبداد: ٦٥.

فالمستبد لا يخاف من علوم اللغة نحوها وصرفها وأصواتها وبلاغتها لكن يخاف الأدباء الذين يعرفون هذه العلوم، فيبدعون نصوصاً تبعث الحماس في النفوس، وجعل الكميت بن زيد مقدما فيها على حسان – رضي الله عنه - شاعر الرسول والدعوة الجديدة، وهو بهذا يبدي تعاطفه على الحزب الشيعي، ويرى الكميت مقدماً في نفسه وعقله على حسان، ولو كان متأخراً تاريخياً عنه.

ولا يخاف المستبد حلقات الذكر ولا صلوات المصلين في أوقاتها ولا أيام صيامهم فهو يعلم أنها لا تقدم شيئاً من أمره، ولا تؤخر شيئاً من فعله، فهو أمر فردي إذا اعتاد عليه صاحبه لا يرى العلم إلا ما عاش عليه، ولا العيش إلا ما اعتاده..وإذا كان منهم نوابغ عرف المستبد طرق اصطيادهم بعبارات تعزز مواقعهم ولقيمات تشبع حاجاتهم من مال الاستبداد ومائدته.. وغيرهم من الماديين والتجار وأهل الصناعات مثلهم ودونهم.

وفي تعيين العلاقة بين العلم والاستبداد يقول الكواكبي: ((**والخلاصة أنَّ الاستبداد والعلم ضدان متغالبان؛ فكلُّ إدارة مستبدة تسعى جهدها في إطفاء نور العلم، وحصر الرعية في حالك الجهل. والعلماء الحكماء الذين ينبتون أحياناً في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير أفكار النّاس، والغالب أنَّ رجال الاستبداد يُطاردون رجال العلم وينكلون بهم، فالسعيد منهم من يتمكّن من مهاجرة دياره، وهذا سبب أنَّ كلَّ الأنبياء العظام - عليهم**

الصلاة والسلام - وأكثر العلماء الأعلام والأدباء والنبلاء - تقلّبوا في البلاد وماتوا غرباء.))[1].

فجعل الاستبداد قرين الجهل في مناقضة العلم، ومحاربة أهله الواعين لما تدور به عجلة الاستبداد، وأسماهم العلماء الحكماء الذين يضعون الأمور في مواضعها، ووجد السعيد منهم من هاجر من وطنه، وسعى في مناكبها اقتداء بالأنبياء العظام، وقد هاجروا من أوطانهم كموسى - عليه السلام - ومحمد - عليه السلام - وماتوا غرباء في أوطانهم الجديدة.

المجد والاستبداد:

سعى الكواكبي إلى البحث عن أسرار فتور الأمة عن مكاشفة المستبدين والكشف عن فسادهم في الأرض، فقال على لسان المحقق المدني: **((أما أَنا، فَالَّذِي يجول فِي فكري، أَن الطامة من تشويش الدّين وَالدُّنْيَا على الْعَامَّة بِسَبَب الْعلمَاء المدلسين وغلاة المتصوفين الَّذين استولوا على الدّين فضيعوه، وضيعوا أَهله، وَذَلِكَ أَن الدّين إِنَّمَا يعرف بِالْعلم، وَالْعلم يعرف بالعلماء العاملين، وأعمال الْعلمَاء قيامهم فِي الْأمة مقَام الْأَنْبِيَاء فِي الْهِدَايَة إِلَى خير الدُّنْيَا وَالْآخِرَة.**

وَلَا شكّ أَن لمثل هَذَا الْمقَام فِي الْأمة شرفاً باذخاً يتعاظم على نِسْبَة الهمم فِي تحمل عنائه وَالْقِيَام بأعبائه. فبعض ضعيفي

---

(١) طبائع الاستبداد: ٧٠.

الْعلم وفاقدي الْعَزْم تطلعوا إِلَى هَذِه الْمنزلَة الَّتِي هِيَ فَوق طاقتهم، وحسدوا أَهلهَا المتعالين عَنْهُم، فتحيلوا للمزاحمة والظهور مظهر الْعلمَاء العظماء بالإغراب فِي الدّين وسلوك مَسْلَك الزاهدين؛ وَمن الْعَادة أَن يلجأ ضَعِيف الْعلم إِلَى التصوف، كَمَا يلجأ فَاقِد الْمجد إِلَى الْكبر، وكما يلجأ قَلِيل المَال إِلَى زِينَة اللبَاس والأثاث (مرحى).))[1].

أسمى التحير في الدين تشويشاً، وجعله سببه كامناً في العلماء المدلسين، وشيوخ المتصوفين. فأراد بالعلماء المدلسين فقهاء السلاطين الذين يجعلون الحيل الشرعية وسيلة لنقض الأحكام الواضحة، وأراد بالمتصوفين أبا الهدى الصيادي ومدرسة التصوف التركية التي جعلت الدين أفيوناً للشعوب، وجعل الشرف والمجد قريناً بالعلماء العاملين بعلمهم الحق، وجعل شيوخ المتصوفة ممن يعين السلطان جهلة لبسوا زي العلماء، وتظاهروا بالزهد، وجاءوا بالغرائب والعجائب مما يبهر عيون العامة ويلغي عقولهم، وجعل فقراء المجد يظهرون الكِبر على الناس، كما لو كانوا عظماء النسب، وجعل شيوخ السلاطين يلبسون طيلسان العلماء، ولا شيء عندهم من علمهم..

فالمجد بالعلم، وليس النسب علماً، ولا التظاهر بالأزياء يعني علماً أو رقياً أو ديناً..

---

(١) أم القرى: ٣٥.

ابن خلدون والمجد بالنسب:

لا ريب في علو همة من ينسب إلى ذوي الأحساب، وأعلى الأحساب ما كان لرسول الله -عليه الصلاة والسلام وعلى آله وصحبه الكرام - وكان الانتساب لهم مغرياً بالمكارم حيث حلّت، يدلك على ذلك أسئلة هرقل لأبي سفيان عن الرسول العربي في ابتداء دعوته بقول أبي سفيان وإجابة ملك الروم:

((كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟

قُلْتُ : هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا القَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟

قُلْتُ : لاَ.

قَالَ : فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟

قُلْتُ : لاَ... وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ...))[1].

فالخبر يبين أن النسب للملوك يغري بطلب الحكم، ويكون الدين وسيلة لتجميع الناس لغاية سياسية دنيوية.. والرسول بنجاح دعوته وقيام دولته صار سببا لمن ينتسب إليه بالمطالبة بدولته، وهنا معقد الكلام، فيكون الأولاد والأحفاد ثواراً كالحسين – رضي الله عنه - وأحفاده، وكان الكواكبي قد رمى المؤرخ ابن خلدون بقوله:

---

(١) صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، الرياض -دار السلام، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م : ٢ح: ٧.

((وقد أشكَلَ على بعض الباحثين أيّ الحرصين أقوى؟ حرص الحياة أم حرص المجد؟ والحقيقة التي عوَّل عليها المتأخِّرون وميَّزوا بها تخليط ابن خلدون هي التفضيل؛ وذلك أنَّ المجد مفضَّل على الحياة عند الملوك والقُوَّاد وظيفةً، وعند النُّجباء والأحرار حميّةً، وحبُّ الحياة ممتاز على المجد عند الأُسراء[1] والأذِّلاء طبيعةً، وعند الجبناء والنساء ضرورةً. وعلى هذه القاعدة يكون أئمة آل البيت - عليهم السلام - معذورين في إلقاء أنفسهم في تلك المهالك؛ لأنَّهم لمّا كانوا نجباء أحراراً، فحميّتهم جعلتهم يفضِّلون الموت كراماً على حياة ذلٍّ مثل حياة ابن خلدون الذي خطّأ أمجاد البشر في إقدامهم على الخطر إذا هُدِّدَ مجدهم))[2].

حاولت البحث عن مواطن ذكر هذه العبارة عند ابن خلدون فوجدته يدفع حجة للقاضي أبي بكر الباقلاني في حديثه عن أدعياء النسب من العبيديين إلى آل البيت، وكيف يركبون المخاطر ببذل أرواحهم فقال على لسانه:

((ولو ارتابوا في نسبهم لما ركبوا أعناق الأخطار في الانتصار لهم فصاحب البدعة لا يلبّس في أمره، ولا يشبّه في بدعته، ولا يَكذِبُ نفسه فيما ينتحله. والعجب من القاضي أبي بكر الباقلانيّ شيخ النّظّار من المتكلّمين كيف يجنح إلى هذه المقالة المرجوحة ويرى هذا الرّأي الضّعيف؟!!!))[3].

---

(١) الأسراء: بمعنى الأسرى أو الأسارى، وهي جمع أسير على أسراء قياساً.

(٢) طبائع الاستبداد: ٧٣.

(٣) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: ١٧.

فابن خلدون يبطل حجة الباقلاني الذي جعل اندفاعهم دالا على صحة انتسابهم مغفلاً شهوة الملك والحكم لديهم، ولو صح كلامه ما وجدنا ثائرا لا ينتسب إلى آل البيت. فالكواكبي يجعل أدعياء النسب كالأصلاء فيه انتصارا لهوى في نفسه يخفيه، وابن خلدون أثنى على آل البيت في المواضع التي ذكرهم فيه من كتابه.. وأنكر نسب هؤلاء حكاية عن المنكرين في زمانهم.. وتثبيتاً للحقيقة كما يراها، ولا أعلم سبب دفاع الكواكبي عن العبيديين وانتسابهم، وأبى على الصيادي ادعاء النسب سوى طوية لم يبدها، جعلها تتصل بالولاء، وليس بالانتساب.. وإلا فالصيادي والعبيديون أدعياء في نسبهم.. وفق الشهادات التاريخية..

المال والفساد:

مما لا ريب فيه أن الإنسان يحب المال ﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾[1] والمال يكون وسيلة للإصلاح ويأتي وسيلة للإفساد﴿**كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾[2] وفق إرادة مالكه، لكن الكواكبي نظر إلى المال في سياق أيام تفسخت فيه الإدارة العثمانية، فكان المال معادلاً لأبواب كثيرة في الحياة جمعها في قوله:

((المال يصحُّ في وصفه أن يُقال: القوة مال، والوقت مال، والعقل مال، والعلم مال، والدِّين مال، والثّبات مال، والجاه مال، والجمال مال،

(١) سورة الفجر: ٢٠.

(٢)سورة العلق: ٧.

والترتيب مال، والاقتصاد مال، والشُّهرة مال، والحاصل كلُّ ما يُنتَفَع به في الحياة هو مال))(1).

صحيح أن المال كل ما ينتفع به في الحياة كالأرض والأنعام والمواسم الحاصلة منهما، وصحيح أن فتاوى الدين تشرى بالمال، والصحة يحافظ على قوتها وعلاجها بالمال، والعلم يحتاج طالبه إلى المال، وكذلك صاحبه، والثبات في المواقف يحتاج إلى المال، وجمال الإنسان ثروة يحافظ عليها بالمال، وقد تكون سبباً لجلبه، والقدرة على الترتيب والتنسيق للمهندسين تجلب المال لهم.. فالمال معادل لكل ما يحتاج إليه الإنسان، ويمكن أن يفتح أبواب الشهرة لصاحبه الكريم، أو يفتح أبواب الشر عليه، واقتصاد الدول وتمويلها مال..

وللمال وظائف في حياة الإنسان أدركها الكواكبي بقوله: **((والمقصود من المال هو أحد اثنين لا ثالث لهما، وهما: تحصيل لذّة أو دفع ألم، وفيهما تنحصر كلُّ مقاصد الإنسان، وعليهما مبنى أحكام الشرائع كلها، والحاكم المعتدل في طيّب المال وخبيثه؛ هو الوجدان الذي خلقه الله صبغةً للنّفس، وعبَّر عنه القرآن بإلهامها فجورها وتقواها، فالوجدان خُيِّرَ بين المال الحلال والمال الحرام. ثمَّ إنَّ أعمال البشر في تحصيل المال ترجع إلى ثلاثة أصول:**

١ - استحضاره المواد الأصلية.

٢ - تهيئته المواد للانتفاع.

٣ - توزيعها على الناس.

---

(١) طبائع الاستبداد: ٨٩.

وهي الأصول التي تسمّى بالزراعة والصناعة والتجارة، وكلُّ وسيلة خارجة عن هذه الأصول وفروعها الأولية، فهي وسائل ظالمة لا خير فيها))[1].

فالكواكبي جعل غاية المال تحصيل اللذة ودفع الألم، فعبر عن المنافع باللذة في إشارة إلى متع البطن والفرج أو الشهوات، وجعل الضرر سبباً للشقاء، يمكن دفعه بالمال كدفع الأمراض بالدواء، ودفع الأخطار.. وهي تقتضي المال. فاللذة جزء من السعادة، وفيها المسّرة، والألم جزء من الشّقاء، وفيه المضرة، وأومأ إلى الآية: **{ونفس وما سواها فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}**[2] وقدم اللذة؛ لأن الآية قدمت الفجور على التقوى، ممّا يجعل المال في رؤيته سبباً من أسباب الفساد من جهة الاستعداد، وسبباً من أسباب التقوى من جهة أخرى لمن أراد. وجعل مصادر المال محصورة في الزراعة والصناعة والتجارة، وأبطل المصادر الأخرى للتمويل القائمة على الافتراس..

أثر الاستبداد:

لا ريب في أن الكواكبي يصف السياسة الاستبدادية نحو المال ومالكيه في عصره بقوله: **((ولنرجع إلى بحث طبيعة الاستبداد في مطلق المال فأقول: إنَّ الاستبداد يجعل المال في أيدي الناس**

(١) طبائع الاستعباد: ٩٣.
(٢) سورة الشمس: ٧ -٨.

عرضـةً لـسلب المـستبدّ وأعوانـه وعمّالـه غـصباً، أو بحجـةٍ باطلـة، وعرضـةً أيـضاً لـسلب المعتـدين مـن اللـصوص والمحتـالين الـراتعين في ظـلِّ أمـان الإدارة الاسـتبدادية. وحيـث المـال لا يُحـصَّل إلا بالمـشقّة، فـلا تختـار النفـوس الإقـدام عـلى المتاعـب مـع عـدم المـنِّ عـلى الانتفـاع بالثمرة))[1].

قـام الكـواكبي بتحديـد مـصادر الخطـر عـلى المتمـول مـن تلـك المصادر (الزراعة والصناعة والتجارة) مـن جهـة المستبد نفسه أولاً، أو من جهة أعوانه وموظفيه ثانياً، ومن جهة اللـصوص ثالثـاً، ومـن جهـة المحتالين رابعاً. وجعل الدولة العثمانية حامية لهـم. ولم يـشر إلى التجـار من حلفاء الدولة الذين تفتح لهم أبواب اكتساب الرزق بالـسبل كلهـا، وترى أموالهم رصيدا لها يحميها في أوقات الشدة، يبدو أنـه كـان يراقـب أوضاع الرأسمال العربي في ظل الحكم التركي. فالمال تملكه الدولـة عنـد حاجتهـا إليـه، ولا تـسأل عـن أحـوال مالكـه، ولا معـاني حيازتـه أو خصوص ملكيته.

وختام رؤيته ترى أن المال للمستبد وحده إذ يقـول: **((الاسـتبداد المشؤوم لم يرضَ أن يقتل الإنسان ذبحاً ليأكل لحمه أكلاً كما كـان يفعـل الهمـج الأولـون، بـل تفـنَّن في الظلـم، فالمـستبدّون يـأسرون جمـاعتهم، ويـذبحونهم فـصداً بمبـضع الظلـم، ويمتـصون دمـاء حيـاتهم بغـصب أموالهم، ويقصرون أعمارهم باستخدامهم سخرة في أعمالهم، أو بغصب**

(١) طبائع الاستبداد: ١٠١.

ثمرات أتعابهم. وهكذا لا فرق بين الأولين والآخرين في نهب الأعمار وإزهاق الأرواح إلا في الشكل))[1].

فالكواكبي يرى الظلم الصادر من المستبد بحق أموال الناس ليس إلا قتلاً بطيئاً، وهو ربما ذهب إلى أنه سينهب عماله إلى أن يكلفهم بأعمال السخرة، ويغصب ثمرة أتعابهم أيضاً.. فتكون لعبة الصراع مستمرة..

الاستبداد والأخلاق:

يربط الكواكبي الأخلاق بثلاثة أوتاد: الوراثة، والتربية، والعلم، بقوله: **((الأخلاق أثمار بذرها الوراثة، وتربتها التربية، وسُقياها العلم، والقائمون عليها هم رجال الحكومة، بناءً عليه؛ تفعل السياسة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في إنماء الشجر))**[2].

أما الوراثة فتلك النابتة من جبلة الإنسان في شهوتي البطن والفرج، أو الاستعداد الموروث عن الآباء والأجداد، وهي كالبذرة تحمل معاني التجدد إذا جعلت في تربة مناسبة..

وأما التربية فتقوم بتنظيم تلك الدوافع وفق أخلاقيات المجتمع وطبائع رؤيته التاريخية لتلبية الحاجات بضوابط الصدق والأمانة والوفاء والإخلاص، وجعل العلم حارساً للأخلاق وسبلها في تنظيم علاقات تحصيل الرزق لبناء الطاقة في البدن، وسبل إنفاقها بضوابط

---

(١)طبائع الاستبداد: ٩٠.

(٢) طبائع الاستبداد: ١١٠.

المجتمع والنواميس الطبيعية التي تحدد النافع (اللذة) والضار (الألم) وأوكل التربية لرجال الحكومة مما يعني تأثره بالتعاليم الشرقية للمجتمع الاشتراكي في طور الدعوة إليه قبل قيامه. وهي خطوة مختلفة عن مسألة تربية الوالدين لأولادهم.. فكأنه يومئ إلى أن التربية العامة مهمة لتخليص الأبناء من أخطار تربية البيوت بما فيها من استمرار الأمراض المتوارثة فيها، والعلم وسيلة اكتشاف العلل الموروثة أو المكتسبة من المجتمع، وترتيب القوانين النافعة المكتسبة من العلم بها.

التربية والاستبداد:

أظهر الكواكبي إدراكه لتأثير التربية في الأخلاق، وجعلها عاملاً موجهاً للوراثة قائماً على العلم، ثم تراه يقدم مبلغ علمه بتأثير التربية في حياة الأفراد والأمم بقوله: ((**ثمَّ إنَّ التربية التي هي ضالّة الأمم، وفقدها هي المصيبة العظيمة، التي هي المسألة الاجتماعية؛ حيث الإنسان يكون إنساناً بتربيته، وكما يكون الآباء يكون الأبناء، وكما تكون الأفراد تكون الأمّة. والتربية المطلوبة هي التربية المرتَّبة على إعداد العقل للتمييز، ثمَّ على حسن التفهيم والإقناع، ثمَّ على تقوية الهمّة والعزيمة، ثمَّ على التمرين والتعويد، ثمَّ على حسن القدوة والمثال، ثمَّ على المواظبة والإتقان، ثمَّ على التوسّط والاعتدال، وأنْ تكون تربية العقل مصحوبةً بتربية الجسم، لأنهما متصاحبان صحة واعتلالاً، فإنه يقتضي تعويد الجسم على النظافة وعلى تحمّل المشاقّ، والمهارة في الحركات، والتوقيت**

في النوم والغذاء والعبادة، والترتيب في العمل وفي الرياضة والراحة. وأن تكون تلكما التربيتين[1] مصحوبتين أيضاً بتربية النفس على معرفة خالقها ومراقبته والخوف منه))[2].

فالتربية ضربان: أحدهما مادي والآخر نفسي. أما المادي فابتداؤه الجسم فصيانته بالنظافة والرياضة والراحة والعمل ضرب من الرياضة، ليستقيم العقل، على طريقة العقل السليم في الجسم السليم، وموضوعاته التربية الاجتماعية : التمرين للأبناء على العمل، والمداومة عليه في أوقات محددة ليعتاده الجسم والعقل والنفس. والانضباط في العمل حركة ومداولة ووقتاً يعين على تكوين شخصية معتدلة في عملها مما يجعل الاعتدال بالاعتياد جزءا من البنية النفسية والعقلية والعضوية، ولا بد من إيجاد نماذج القدوة في الآباء والأمهات، والمعلمين والمعلمات في التربية، والساسة في قيادة المجتمع.

والتفت إلى معرفة النفس بخالقها لتكون تلك المعرفة خالقة لفكرة مراقبة الله للإنسان، وهو يقوم بعمله، ويؤدي واجبه بأمانة وإخلاص، ولعل الجهة النفسية مجعولة لوظيفتها الاجتماعية في إتقان العمل وتنفيذه بأمانة ودقة وإخلاص، فيكون بذلك إشباع للروح برضى الخالق، ورضى رب العمل مهما يكن...

---

(١) الصواب: التربيتان، هكذا وردت في الأصل، وقد شكا دارسوه من ضعفه في العربية...

(٢) طبائع الاستبداد: ١٣٨.

فجعل التربية برتبة الحكمة ضالة المجتمعات تفقد المجتمعات شخصيتها وقيمها بضياع التربية التي كانت قاعدة من قواعد تنشئة الأخلاق.

الترقي والاستبداد:

الرقي نحو الأمام أمر توجبه حركة الأزمان وحركة الإنسان المفيدة، والإنسان مُخَيَّرٌ في اتجاه حركته أماماً أو خلفاً، الترقي في الطاقة جزء من أطوار النمو الإنساني، وكذلك أطوار النمو العضوي في الكائنات الحية، وقد أدرك الكواكبي ذلك بقوله: **((الترقّي الحيوي الذي يجتهد فيه الإنسان بفطرته وهمّته هو أولاً: الترقّي في الجسم صحّةً وتلذُّذاً، ثانياً: الترقّي في القوّة بالعلم والمال، ثالثاً: الترقّي في النفس بالخصال والمفاخر، رابعاً: الترقّي بالعائلة استئناساً وتعاوناً، خامساً: الترقّي بالعشيرة تناصراً عند الطوارئ، سادساً: الترقّي بالإنسانية، وهذا منتهى الترقّي.**

وهناك نوعٌ آخر من الترقّي ويتعلق بالروح وبالكمال، وهو أنَّ الإنسان يحمل نفساً ملهمة بأنَّ لها وراء حياتها هذه حياةً أخرى يترقّى بها على سلّم العدل والرحمة والحسنات.))[1] فالترقي في الجسم(صحة بخلوه من الأمراض، وتلذذاً بإشباع وظائف الأعضاء إشباعاً معتدلا لا إسراف فيه) والترقي في القوة يوجب التحق من قيامه على أمرين: العلم والمال، فالعلم بوابة الترقي العقلي والنفسي والحس، والمال يوجب العمل لتحصيله، التنفيذ في ضوء العلم بالطاقة والقوة شرط والمال ضمان للقيام بالمهام التي تقتضي الوسائل وتقتضي التعاون.

---

(١) طبائع الاستبداد: ١٤٢.

وترقي النفس بالخصال الحميدة وما يفخر به المرء من عمل يوجب العلم بتلك المحامد وبسبل تنفيذها، ويوجب المال لتحقيقها.

والترقي بالأسرة استئناساً بين أبنائها، وتعاوناً يقوم على الحب والاحترام والوعي للقاء الأجيال وتعاونها على البناء للأسرة مجتمعة، ولكل واحد منها حق يكفيه إلى أن تتفرق إلى أسر أخرى.

والترقي بالعشيرة الذين تعاشرهم في الحي أو القرية إلى التعاون التام في مواجهة الطوارئ..

والترقي بالإنسانية كلها إلى ما تقدم ليعيش الإنسان بمأمن من الظلم، ثم تحدث عن الرقي الروحي أو الديني ليكون حارساً صورَ الرقي المادي.

أثر الاستبداد:

وجد الكواكبي أن الاستبداد التركي قلب توجه البشر من جهة الرقي إلى جهة النكوص من المدينة إلى القرية ثم البادية فقال: ((**وقد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة أن يحوِّل ميلها الطبيعي من طلب الترقّي إلى التسفُّل، بحيث لو دُفِعَت إلى الرِّفعة لأبت وتألَّمت كما يتألَّم الأجهر من النور، وإذا أُلزِمَت بالحرية تشقى، وربما تفنى كالبهائم الأهلية إذا أُطلِق سراحها. عندئذٍ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة، فلا ينفكُّ عنها حتى تموت ويموت هو بموتها...**))[1].

---

(١) طبائع الاستبداد: ١٤٣.

تتغير الطبائع الفطرية بألفتها الاستبداد فتنقلب نواميس الرغبات، وتنعكس أفعال الإرادات من طلب العلو إلى طلب الدنو، وتنفر من الحرية إلى الاستعباد، ويطمع بها المستبدون فيمتصون عناصر حياتها إلى أن تهلك الأمة فيهلك المستبدون بهلاكها لتنازع المستبدين على ما في أيديهم، فيهلك بعضهم بعضاً. فينتهي الاستبداد بإتلاف نفسه بعد تدمير المجتمع.. وهذا يبرز حرص الكواكبي على إخراج العرب من دائرة هلاك الدولة العثمانية التي أهلكت رعيتها بالاستبداد..

سبيل التخلص:

بعد تحليل الاستبداد الناشئ من فساد علماء الدين والتربية وطغيان المال والشعور بأحساب ذوي الأنساب ومصادمة قوانين الترقي بطول الاستبداد، وما قدمه فأولى خطوات العلاج تكمن في تخطي تلك الأسباب، ثم أوصى بتربية الأجيال الجديدة لتكون أداةً في الخلاص من الاستبداد، بقوله:

((ورأس الحكمة فيه كسر قيود الاستبداد. وأنْ يكتب الناشئون على جباههم عشر كلمات، وهي:

١ - ديني ما أُظهر وما أُخفي.

٢ - أكون؛ حيثُ يكون الحقُّ ولا أبالي.

٣ - أنا حرٌّ وسأموت حرّاً.

٤ - أنا مستقلٌّ لا أتّكل على غير نفسي وعقلي.

٥ - أنا إنسان الجدّ والاستقبال، لا إنسان الماضي والحكايات.

٦ - نفسي ومنفعتي قبل كلِّ شيء.

٧ - الحياة كلُّها تعبٌ لذيذ.

٨ - الوقت غالٍ عزيز.

٩ - الشَّرف في العلم فقط.

١٠ - أخاف الله لا سواه))(١).

أهم الوصايا التي تخرج من مظنة مداراة العامة وأؤلياء أمور الناشئين قوله: (- نفسي ومنفعتي قبل كلِّ شيء.) وهي تغازل الغرب ونظريته القائمة على المنافع (البراغماتية) دون المبادئ والعقائد، وهو لا يستطيع إغفال ما قدمه في تمهيد يخدر المشاعر، فهو يقدم نفسه ومنافعها على ما سواهما، مما يسقط مفهوم المبادئ والاعتقادات المشتركة.

وقوله: (أنا مستقلٌّ لا أتّكل على غير نفسي وعقلي.) فهو يؤكد الاستقلال في الفكر والاعتقاد، ويجعل الاعتماد على ما تميل إليه النفس ويصدقه العقل أو يكذبه لينعتق الجيل من سلطان العلماء والأولياء وخرافاتهم.. ولا يبقون موتى في أيدي من يغسلونهم لترحيلهم إلى القبور وهم في الحياة.. وقوله: (أنا حرٌّ وسأموت حرّاً) أي ولدت حراً وسأبقى كذلك متحررا من كل سلطان على نفسي أو عقلي، وسأموت على ذلك..

---

(١) طبائع الاستبداد: ١٦٢.

وقوله: (أكون؛ حيثُ يكون الحقُّ ولا أبالي.) فهو منحاز للحق الذي يراه عقله، وليس للحق الذي يراه غيره، ولا يخشى لوم اللائمين..

وقوله: (الشرف في العلم فقط) أي لا في التدين ولا في الأنساب، ولا في المال، ورأيناه يربط العلم بالتربية..

ويرى أن مخافة الله تقتضي أن يكون شاهداً بالحق على الحق، وجعل الدين موقظاً للضمير في طلب العلم والعمل والشراكة في الصوالح العامة. وحدد قواعد رفع الفساد باللين[1] وصفات الرجال الذين يريدون رفع الاستبداد عن أمتهم[2].

وكشف عن قوانين انتفاض العوام[3].. وختم كتابه طبائع الاستبداد بالقوانين المدنية[4] القائمة على المساواة بين الناس من غير تمييز على أساس الدين أو الأنساب أو الأحزاب والشورى السياسية الملزمة.

وهو لا يرى العنف سبيلاً للتخلص من الاستبداد، لقوله: **((الاستبداد لا ينبغي أن يُقاوَم بالعنف، كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً. نعم؛ الاستبداد قد يبلغ من الشدَّة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجاراً طبيعياً، فإذا كان في الأمَّة عقلاء يتباعدون عنها ابتداءً، حتى إذا سكنت ثورتها نوعاً وقضت وظيفتها في حصد المنافقين، حينئذٍ يستعملون الحكمة**

(١) انظر: طبائع الاستبداد: ١٧٩.

(٢) انظر: طبائع الاستبداد: ١٨١.

(٣) انظر طبائع الاستبداد: ١٨٣.

(٤) انظر: طبائع الاستبداد: .١٧٣.

في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة، وخير ما تؤسَّس يكون بإقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد، ولا علاقة لهم بالفتنة.))[1]

مما تقدم يتبين أن الكواكبي يرى الفساد ينشأ في أطوار ضعف الأمة، ويرى أن رجال الدين يوظفونه في خدمة الاستبداد خدمة لصوالحهم، وجعل السلطة والتجار في تنازع يحفه الخوف والاتحاد على طوية الضغينة في قلوب التجار ضد الحكام. وجعل التربية وسيلة للخلاص كأنها حرة من سلطان الحكام والتجار، ولم يفرق بين استبداد القانون، واستبداد أهواء الحاكمين، وخلاصة الموقف ينبع من الاستفادة من هجوم الدول الغربية على الدولة العثمانية بذريعة الصالح القومي، والخلاص من طغيان الأتراك على الدولة والقوميات المتعددة، فكان براغماتياً متعللا ببراغماتية مؤسسي الدولة العثمانية الذين أقاموا امبراطوريتهم بالتحالف مع دول الروم من قبل، ضد العباسيين والأندلسيين..

(١) طبائع الاستبداد: ١٨٣.

الحواشي

الوراقة:

١ - الأعلام، لخير الدين الزركلي، بيروت –دار العلم للملايين، ط: ١٤، ١٩٩٩م

٢ - أم القرى:، للسيد الفراتي، وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦هـ، القاهرة المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر، ١٣٥٠هـ-١٩٣١م

٣ - تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، لعلي بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود، أبي الحسن بن ذي الوزارتين الخزاعي (-٧٨٩هـ) تحقيق: د.إحسان عباس، بيروت - دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤١٩هـ

٤ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحق بن موسى بن مهران الأصفهاني(-٤٣٠هـ)، القاهرة -دار السعادة، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م

٥ - شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي(-٤٥٨هـ)، تحقيق: د.عبد العلي عبد الحميد حامد، الرياض -مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م

٦ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري(-٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت - دار العلم للملايين، ط٤، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م

٧ - صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، الرياض -دار السلام، ط٢، ١٤١٩هـ -١٩٩٩م

٨ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبد الرحمن الكواكبي، تقديم: د.أسعد السحمراني، بيروت -دار النفائس، ط٢، ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م

٩ - عبد الرحمن الكواكبي جدلية الاستبداد والدين، حسن السعيد، قم - مكتبة مؤمن قريش، سلسلة رواد الإصلاح، العدد(٥) ط١، ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م

١٠ - عبد الرحمن الكواكبي، عباس محمود العقاد، القاهرة الهنداوي، ٢٠١٢م

١١ - عبد الرحمن الكواكبي فارس النهضة، د.ماجدة حمود، كتب عربية[د.ت]

١٢ - عبد الرحمن الكواكبي، د.محمد عبد الرحمن برج، القاهرة -الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م

١٣ - العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لأبي زيد ولي الدين

عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي الشهير بابن خلدون(٧٣٢ -٨٠٨هـ)، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، عَمَّان والرياض -بيت الأفكار الدولية، [د.ت]

١٤ - معجم القراءات، د.عبد اللطيف الخطيب، دمشق – دار سعد الدين للطباعة والنشر، [د.ت]

نظرات في أسئلة النهضة ورؤى أعلامها...

عبد الرحمن الكواكبي وكتابه

«طبائع الاستبداد» أنموذجا!

د. راتب سكر

١- مدخل١

٢- مدخل٢

٣- الكواكبي بين ثقافات الأمكنة العربية والعالمية

٤- تجديد الحوار مع الكواكبي وكتابه «طوابع الاستبداد»

٥- مصادر الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد»

٦- الطوابع الصحفية في منهج كتاب «طبائع الاستبداد»

٧، الكواكبي ومثقفو عصره

٨- الكواكبي ومثقفو أوروبا

٩- مواقف الكواكبي من أمراض المجتمع وسبل علاجه

١٠- خاتمة.

١ - مدخل١:

سنة ١٩٠٢، دسّ دسّاس ما السمّ في فنجان قهوة، يشربه عبد الرحمن الكواكبي، فقضى اغتيالاً، وهو في الثالثة والخمسين من عمره...

قرأت الخبر في مرحلة مبكّرةٍ من نشأتي ويفاعتي، فاستبدّ بي الغضب، وملأت صدري الطريّ الصغير الحماسة العارمة، فتطاولت، وقلت لأصيحاب من لداتي: «قتلوه، ولكنهم عاجزون عن قتل أحلامه وأفكاره».

يومها، لم أكن أعرف الكثير عن تلك الأحلام والأفكار، ومن الراجح أن تعاطفي الفطري العفوي مع أي مفكر أو مثقف يتم اغتياله بسبب أفكاره ورؤاه، قد زيّن لي مكونات هذا التصور وتأويلاته، في بناء فهمي ذي الطوابع الشاعرية لقصّة مصرع الكواكبي.

٢ - مدخل٢:

هاأنذا بعد سنوات طويلة، أجدني أعيد ترتيب أوراق الحوار مع قهوة الكواكبي، والأفكار التي دفعت دسّاس سمّها إلى ما فعل، فأقرأ كتابيه «أمّ القرى» و«طبائع الاستبداد»[1]، وكتباً خطّ سطورها باحثون عنوا بسيرته

---

(١) الكواكبي، عبد الرحمن، د.تاريخ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. تحقيق وتقديم د.محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، (١٤٠ص).

ومؤلفاته، ملتمساً مرتكزات رؤى ذات طوابع أدبية وثقافية واجتماعية، قد تكون مفيدة للراغبين في تجديد الحوار مع الكواكبي وأسئلته الفكرية والثقافية في ارتباطها الجوهري الأصيل بالأسئلة الكبرى لمسارات النهضة العربية، وأحلام تنويرها، بعد مآلها على شتات دروبها، تكسّر عرباتها الوردية ظلمات طاغية، ويدفعها تيه متجبر إلى فلواته.

٣ - الكواكبي بين ثقافات الأمكنة العربية والعالمية:

ولد الكواكبي في حلب عام ١٨٤٩، وسرعان ما انتقلت إقامته بعد وفاة أمه، وعاش في كنف خاله، في مدينة أنطاكية، فأفاد من تنوعها اللغوي والثقافي، متابعاً دراسته باللغتين العربية والتركية التي تمكن منها.

برز الكواكبي بعد عودته إلى حلب، مثقفاً نابهاً، مستفيداً من خبرات نشأته في أنطاكية، وشرع ينشر كتاباته في الصحافة، يتابع نشر مقالاته اللاهبة، توقاً إلى عدالة اجتماعية مفتقدة، متحدياً عَنَتَ المتنفذين الذين عتوا في ظلمهم، حتى إذا بلغ يأسه من تحقيق الإصلاح المنشود في محيطه مداه، هجر حلب، سنة ١٨٩٧م - ١٣١٨هـ، سائحاً في البلاد الآسيوية، ولاسيما الهند والصين، ليستقر به المقام في مصر، مستفيداً من خبرات تنقلاته في البلدان المختلفة، واطلاعه على ثقافات الشرق والغرب، في إعادة صقل مقالات من كتاباته السابقة، وتحضيرها لنشرها في كتابه «طبائع الاستبداد»، الذي تحدث فيه عن أسفاره، واستقراره في مصر، التي كانت تنعم بعهد من الحرية، فكتب يقول: «إنني في سنة ثماني عشرة وثلاثمئة وألف هجرية، هجرت دياري، سرحاً في الشرق، فزرت مصر،

واتخذتها لي مركزاً، أرجع إليه مغتنماً عهد الحرية فيها، على عهد عزيزها، حضرة سميّ عم النبي العباس الثاني[١]..»[٢].

يحلل د.أنور عبد الملك بواعث سفر عدد من مفكري النهضة ومثقفيها، مثل أديب إسحق وفرح أنطون وشبلي الشميل وعبد الرحمن الكواكبي، من بلاد الشام إلى مصر، فيرى أنها تعود إلى اضطهاد الباب العالي، من جهة، وازدهار مناخ الحرية والثقافة في مصر، من جهة أخرى، فيقول:«إن اضطهاد الباب العالي الذي انطلق منذ ١٧٩٨، والذي عرف أحياناً فترات من الهدوء، جعل من مصر الخديوية ميناء الحرية، ومركز الثقافة العربية خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر»[٣].

٤ - تجديد الحوار مع الكواكبي وكتابه«طوابع الاستبداد»:

يقدم تجديد الحوار مع جوانب من مكونات كتابه«طبائع الاستبداد»، فرصاً مفيدة لإعادة ترتيب حوارات جديدة مع الأسئلة الكبرى للنهضة العربية، التي ظلت تمنح رؤى الثقافة العربية لحاضرها ومستقبلها، مرتكزاتها الجوهرية، منذ مطالع القرن التاسع عشر حتى ارتطام رؤى ذلك الحاضر والمستقبل بأنفاق غامضة مظلمة، ظلت

---

(١) شغل نجيب النقيب عم أم الكواكبي مهمة الأستاذ الخاص للخديوي عباس حلمي الثاني في مصر.

(٢) ص١٩.

(٣) عبد الملك، د.أنور، ١٩٧٤ - الفكر العربي في معركة النهضة. دار الآداب، بيروت، (٢٤٠ص)، ص ٨٨.

تحتفظ بقدراتها على تجديد ظلماتها، حتى قهرت، مرة بعد مرة، نور تلك الأسئلة بمآل بدا خائباً، مكسور الآمال، قهراً يستنفر جهود المهتمين بتجديد النهضة العربية لنور أسئلتها وسط غياهب استقبالها ألفية جديدة من التاريخ، مهيضة الجناح...

هذه الحاجة المتجددة إلى إعادة الحوار مع أسئلة الرؤى النهضوية، ومؤلفات أعلامها، ظلت تعبر عن قيمها المعرفية والوجدانية والفكرية، بتجديد طبع تلك المؤلفات في إصدارات جديدة، على مدارج الأمكنة والسنين، فضلاً عن إرفاق تلك الإصدارات بمقدمات جديدة تتصل بحواضنها التاريخية التي لم تتخل عن وعيها القديم بأهمية أسئلة رؤاها لنهضتها، والحرص على الذود عن حمى مآلها المحاصر برماح الانكسار والخذلان... وما إصدار اتحاد الكتاب العرب في دمشق طبعة جديدة من كتاب الكواكبي «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»(١)، ضمن سلسلة «الثقافة للجميع – كتاب الجيب»، عام ٢٠١٣، مرفقا بمقدمة ضافية بقلم رئيسه وقتذاك د.حسين جمعة، من الأمثلة المعبرة عما تقدم، في هذا المضمار، يوضحها قوله (البارز على صفحة الغلاف الأخيرة) في توضيح الغاية من إعادة هذا الإصدار: «حين نعيد أفكار الكواكبي، فإنما نؤكد حاجتنا إليها لتأسيس نهضتنا الوطنية والقومية العصرية، التي تستند إلى دولة القانون والمؤسسات»....

---

(١) الكواكبي، عبد الرحمن، د.تاريخ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. اختيار مالك صقور وتقديم د.حسين جمعة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (٢٠٨ص).

تنوعت سبل الكتَّاب العرب المعاصرين إلى تفاعلهم مع الكواكبي وسيرته وكتاباته، ففضلاً عن إعادة طبع نماذج من تلك الكتابات ودراستها، ثمة من يستلهمها مع سيرة كاتبها في نصوص أدبية متنوعة، مثل مسرحية د.هيثم يحيى الخواجة: «هجرات عبد الرحمن الكواكبي»[1]، وغيرها.

٥ - مصادر الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد»:

صدر كتاب الكواكبي «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» في مصر عام ١٩٠٠، مقدماً طروحات فكرية نهضوية، تعنى بالإصلاح الاجتماعي السياسي، والدعوى إلى الشورى مرتكزاً لمواجهة طغيان الاستبداد، وتحقيق الإصلاح المنشود.

سبق الكواكبي إلى العناية بموضوعات إصلاح المجتمع، اجتماعياً وسياسياً، وتحريره من ظواهر الاستعباد والطغيان، مفكرون عرب وأوربيون وآسيويون مختلفون، لكنه لم يناقش جهودهم ويدرسها منهجياً، مقتصراً على ذكرها شواهد تعزز ما يذهب إليه، واستلهام ظواهرها ومكوناتها مصادر متنوعة، لموضوعاته ورؤاه.

يذكر الكواكبي ظواهر من مسارات الفكر وأعلامه، عربياً وعالمياً، من أبرزها جهود أعلام الفكر العربي في عصوره المختلفة، وجهود أعلام الفكر العالمي، ولاسيما الفكر الأوربي في عصوره

(١) الخواجة، د.هيثم، ١٩٩٤ - زهرة دوار الشمس، هجرات عبد الرحمن الكواكبي. بالتعاون مع اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (٥٨ص).

المختلفة. لكنه يهمل الإشارة إلى مصادره المعرفية في منهج عرضه ومناقشته لتلك الظواهر، وقد رد بعض الباحثين إهماله مثل هذه الإشارة إلى أن«نزعته الذاتية والصحفية لا تفصح عن مصدرها»[1].

٦ - الطوابع الصحفية في منهج كتاب«طبائع الاستبداد»:

صدر كتاب الكواكبي«طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» في مصر عام ١٩٠٠، ضاماً بين دفتيه مجموعة من المقالات، التي كتبها المؤلف في حلب، ونشر معظمها منجماً في الصحافة، ثم راح يعدّلها موسّعاً أبحاثها، حتى مرحلة إصدارها في الكتاب، الذي عبّر مؤلفه عن منهجه في بناء ما جاء فيه من رؤى فكرية، بمثل قوله في فاتحته:«وقد استقر فكري على ذلك -كما أن لكل نبأ مستقراً- بعد بحث ثلاثين عاما»[2].

عاصر الكواكبي في حلب نشأة الصحف، ونشاطها الذي استوعب كتاباته المقالية الجادة المعبرة عن رؤاه النهضوية الإصلاحية، التي شكَّل قسم منها نواة كتابه العتيد«طبائع الاستبداد»، فقد كان طفلاً في السادسة، عندما أنشأ رزق الله حسون صحيفة«مرآة الأحوال» التي نشرت«مقالات الانتقاد على سياسة الحكومة العثمانية يومئذ»[3].

---

(١) كتورة، جورج، ١٩٨٧ - طبائع الكواكبي في طبائع الاستبداد. المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٥٢٠ص). ص ١٩.

(٢) الكواكبي، عبد الرحمن، د.تاريخ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. تحقيق وتقديم د.محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، (١٤٠ص). ص ٢٠.

(٣) فتوح، عيسى، - أسرة المراش. ص٧ نقلا عن الطباخ.

أسهم تأسيس الصحف في انتشار المقالات التي يكتبها كتَّاب عرب يناقشون فيها قضايا مجتمعاتهم، وما حملته رياح عصرهم من موضوعات جديدة، ومتغيرات عاصفة، وكثيراً ما يورد الباحثون اسم الكواكبي في سياق ذكرهم أسماء أولئك الكتَّاب، بمثل قول د. أنور عبد الملك، في كتابه «الفكر العربي في معركة النهضة»: «شبلي الشميل الذي كان يثني على النزعة التطورية، وعلى العصرية في قلب هيئة مجلة «المقتطف» المؤسسة في عام ١٨٧٦، عبد الرحمن الكواكبي الذي هاجم بعنف استبداد السلاطين»[١].

عني الكواكبي بدراسة واقع المجتمع والأمة في عصره، فلاحظ أن مثل هذه الدراسة تنتمي إلى علم توسع فيه الباحثون من أوربا وأميركا، وقلّ اهتمام العرب به، ولفت انتباهه أثر الصحافة في نشر مثل هذا الاهتمام في منشوراتها، فقال: «المؤلفون من العرب قليلون ومُقِلّون،... ولكن يظهر لنا أن المحررين السياسيين من العرب قد كثروا، بدليل ما يظهر من منشوراتهم في الجرائد والمجلات»[٢].

أفاد الكواكبي من مواكبته منذ نشأته مرحلة نشأة الصحافة وانتشارها، في حلب وغيرها من الحواضر العربية، شاحذاً رؤاه بجديد موضوعاتها، مسهماً في مناقشتها بقلمه الوثَّاب برؤاه المتمردة التائقة إلى جديد ينفض عن الواقع الاجتماعية والسياسي غبار الخمول والركود

(١) عبد الملك، د.أنور، ١٩٧٤ - الفكر العربي في معركة النهضة. دار الآداب، بيروت، (٢٤٠ص)، ص ٨٨.

(٢) لكواكبي، عبد الرحمن، د.تاريخ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. تحقيق وتقديم د.محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، (١٤٠ص)..ص٢٤.

والقيود، حتى إذا بلغ الثامنة والعشرين من عمره عام ١٨٧٧، أصدر جريدة«الشهباء»، التي لم تعمّر طويلاً، فأغلقتها سلطات زمانها، بسبب ما نشرته من مقالات لاهبة في انتقادها عيوب تلك السلطات وتجبر رجالها وقسوة طغيانهم. وفي عام ١٨٧٩، غدا محرراً في صحيفة «الاعتدال»، يتابع رسالته بمقالاته الفكرية والثقافية على صفحاتها.

٧ - الكواكبي ومثقفو عصره:

نظر عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ -١٩٠٢) في كتاباته إلى مجتمعه والعالم الواسع بعين الغاضب المحب الراغب في الإصلاح، فاجتهد في تشخيص الداء المؤلم، واجتهد في توصيف الدواء الناجع، لكنه لم يَدَّعِ أنه قدَّم في كتاباته، لما يعانيه المجتمع من آلام، حلولاً شاملة ناجعة، لا يأتيها باطل، مدركاً إدراك السائرين على دروب العلم وأصحابه، متحلياً بتواضعهم، كُنه ما كتب وغاياته، فقال:«هذا جهدي، وللناقد أن يأتي قومه بخير منه، فما أنا إلا فاتح باب صغير في أسوار الاستبداد، عسى الزمان يوسعه، والله ولي المهتدين»[1].

لم يكن صوت عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ -١٩٠٢) صوت طائر نخبوي فرد يغرد خارج سرب، فقد تناغم ذلك الصوت مع أصوات مثقفي زمانه، الذين سبقوه، أو واكبوه، أو أعقبوه، في مسقط رأسه حلب، أو غيرها من الحواضر العربية.

---

(١) الكواكبي، عبد الرحمن، د.تاريخ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. تحقيق وتقديم د.محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، (١٤٠ص). ص ٢١.

ولد الكواكبي سنة ١٨٤٩، وفي هذه السنة ولد محمد عبده، ومريانا مراش، وتوفي محمد علي باشا، وفي السنة التالية ولد شبلي شميل.

كان الكواكبي أصغر من عبد الله مراش (١٨٣٩ -١٩٠٠) بسنتين، ومن فرنسيس مراش (١٨٣٦ -١٨٧٣) بخمس سنوات، ومن جمال الدين الأفغاني بإحدى عشرة سنة. وكان أكبر من قسطاكي الحمصي[١] بتسع سنوات، ومن رشيد رضا بست عشرة سنة، ومن عبد الحميد الزهراوي[٢](١٢٨٨ -١٣٣٤هـ) (١٨٧١ - ١٩١٦م(باثنتين وعشرين سنة.

كان في الرابعة والعشرين يوم رحيل رفاعة رافع الطهطاوي، وفي التاسعة والثلاثين يوم رحيل أحمد فارس الشدياق. أما قاسم أمين فقد رحل بعد الكواكبي بست سنوات.

شكا الكواكبي من قلة اهتمام المؤلفين العرب بدراسة أمراض المجتمع، وسبل نهضة الأمة، لكنه قدّر جهود الذين كتبوا في هذا المضمار، قائلا:«والذين يستحقون الذكر فيما نعلم: رفاعة بك، وخير الدين باشا التونسي، وأحمد فارس، وسليم البستاني، والمبعوث المدني»[٣].

---

(١) أصدر الجزء الأول من كتابه«منهل الوراد في علم الانتقاد» عام ١٩٠٧.

(٢) الحلاق، محمد راتب، تاريخ النشر - عبد الحميد الزهراوي. اتحاد الكتاب العرب، دمشق. عدد صفحات الكتاب.

(٣) لكواكبي، عبد الرحمن، د.تاريخ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. تحقيق وتقديم د.محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، (١٤٠ص)..ص ٢٤.

٨ - الكواكبي ومثقفو أوروبا:

شرعت أمارات الهزات الفكرية والثقافية، تظهر في كتابات الكتاب والمثقفين العرب، متلاحقة منذ مطالع القرن التاسع عشر، بعد زمن طويل من ركود ثقيل كبّل أقلامهم.

جاءت تلك الكتابات الجديدة مشابهة في غير مكوّن من مكوّناتها، ما ظهر في كتابات الكتّاب والمثقفين الأوربيين، ولاسيما الفرنسيين، متلاحقة منذ مطالع القرن الثامن عشر، التي توّجت بقيام«الثورة الفرنسية»[1] عام ١٧٨٩، وما رافقها من شعارات، وظواهر فكرية وثقافية مثل منظومة إعلان«حقوق الإنسان» وغيرها.

من الراجح أن تلك المشابهة تستند، في جانب منها، إلى التأثيرات المتنامية للثقافة الأوربية، ولاسيما الفرنسية، في الثقافة العربية، وتستند، في جوانب منها، إلى تشابه الظروف والأحوال التي تمر بها المجتمعات البشرية، على مدارج التاريخ، مولّدة مشابه متنوعة في مؤلّفات كتّابها المختلفين. ولعله من المفيد الإشارة إلى تقدير الكتّاب الذين صاغوا بكتاباتهم ما اصطلح على تسميته«مشروع النهضة العربية»، لأهمية«النهضة الأوربية» وأسبقيتها، وتأثيرها المتنامي في بلدان العالم المختلفة، وهو تقدير عُني بتحليل مكوناته د.عبدالله حنا في بحثه«النهضة العربية بين العوامل الذاتية والتأثيرات الخارجية»،

---

(١) سوبول، ألبير،١٩٨٢ - تاريخ الثورة الفرنسية. ط٣، ترجمة جورج كوسى، مشورات عويدات، بيروت، (٦٠٨ص). الطبعة الأولى ١٩٧٠.

يختصر دلالة مهمة فيه قوله: «كانت أوروبا القارة السبَّاقة إلى شق طريق النهضة أمام العالم»[1].

أظهر الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد» تقديره جهود المثقفين الغربيين الذين ألّفوا في أمراض المجتمعات وسبل البرء منها، مقارناً سعة هذه الجهود لديهم، قياساً على ندرتها لدى نظرائهم العرب، فقال: «أما المتأخرون من أهل أوربا، ثم أميركا، فقد توسعوا في هذا العلم، وألّفوا فيه كثيرا، وأشبعوه تفصيلاً...والمؤلفون من العرب قليلون ومقلون»[2].

أشار معظم الذين درسوا كتابه «طبائع الاستبداد»، في كتب أو مقالات، أو مقدمات لطبعاته المتلاحقة، إلى مقارناته المتنوعة بين تفوق الغرب وانحطاط الشرق، بمثل ما جاء في مقدمة إحدى طبعاته المتأخرة من قول: «حرص الكواكبي على إجراء العديد من المقارنات بين الداخل والخارج، بين الغرب والشرق، فأرجع قوة الغربيين وتفوقهم، إلى موت المستبد، أما انحطاط الشرق فربطه بما سماه أصل الداء»[3].

---

(١) حنا، د.عبدالله، ١٩٩٠ - النهضة العربية بين العوامل الذاتية والتأثيرات الخارجية. مجلة المعرفة، عدد خاص: عصر النهضة العربية. العددان ٣١٨-٣١٩، كانون الثاني وشباط، وزارة الثقافة، دمشق، (١٥ص). ص ٧.

(٢) الكواكبي، عبد الرحمن، د.تاريخ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. تحقيق وتقديم د.محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، (١٤٠ص)..ص ٢٤.

(٣) الكواكبي، عبد الرحمن، ٢٠١١ - .تقديم د. محمد لطفي اليوسفي، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، (١٤٣ص). ص ٩.

نستذكر مع حادثة اغتيال الكواكبي –أحد أبرز أعلام مفكري النهضة العربية - مسموماً، حادثة اغتيال المثقف الفرنسي جان جاك روسو -أحد أبرز أعلام مفكري النهضة الأوربية مسموماً، سنة ١٧٧٨، ومما يعزز حالة الاستذكار هذه، على الرغم من عدم وجود دلائل موثوقة على حصول الحادثتين تاريخياً، تشابهات متنوعة بين مواقف هاتين الشخصيتين المثقفتين من قضايا عصريهما، وصدامهما مع متنفذين متجبرين في ذينك العصرين، ومن الراجح أن منح كل منهما«التربية والتعليم» دوراً جوهرياً في إصلاح المجتمع وتحقيق نهضته، يحسب في طليعة تلك المواقف، فضلاً عن تشابه غير مفصّل من مفاصل سيرتيهما، فالكواكبي يهرب من ظلم الوالي العثماني في حلب، إلى القاهرة يعاضده عم أمه نجيب النقيب الذي كان أستاذ الخديوي الخاص، وروسو يهرب من المتربصين به في باريس إلى لندن، يعاضده الفيلسوف الإنكليزي ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٥)، الذي أقام في باريس بين سنتي (١٧٦٣ - ١٧٦٥)، وعاد «وبصحبته روسو الذي جاء يطلب ملجأ في إنكلترا»[(١)].

يبدي الكواكبي تقديراً لمواقف مثقفي أوربا، ونجاحاتهم في تغيير مجتمعاتهم، قياساً على غلبة الركود الفكري لدى مفكري الشرق، الذين لا يجارون قواعد الإصلاح والتغيير بسبب مصالحهم حيناً، وبسبب وهن قلوبهم عن إدراك الحقائق حيناً آخر، فيقول:«وهذه القواعد التي قد صارت قضايا بديهية في الغرب، لم تزل مجهولة أو غريبة، أو منفوراً

(١) برهييه، أميل، ١٩٨٣ - تاريخ الفلسفة، القرن الثامن عشر. ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، (٣١٩ص). ص١١٣.

منها في الشرق، لأنها عند الكثرين منهم لم تطرق سمعهم، وعند البعض لم تنل التفاتهم وتدقيقهم، وعند آخرين لم تحز قبولا، لأنهم ذوو غرض، أو مسروقة قلوبهم، أو في قلوبهم مرض»[١].

يهيمن منهج المقارنة بين أحوال الأوربيين والعرب على تناوله لموضوعات كتابه«طبائع الاستبداد». ولا تقتصر مقارناته على بلد أوربي محدد، بل تتنوع بحسب مقتضى أبوابها وموضوعاتها، بمثل تتبعه لظواهر الاستبداد الديني والاستبداد السياسي في فرنسا وروسيا بقوله: «ويرون أن هذا التشاكل في بناء ونتائج الاستبدادين: الديني والسياسي، جعلهما في مثل فرنسا خارج باريس مشتركين في العمل، كأنهما يدان متعاونتان، وجعلهما في مثل روسيا مشتبكين في الوظيفة، كأنهما اللوح والقلم يسجلان الشقاء على الأمم»[٢].

٩ - مواقف الكواكبي من أمراض المجتمع وسبل علاجه:

لقد فصّل الكواكبي في كتاباته الشروح والتعليقات حول أمراض المجتمع وعلاجها، فوصف جوهر دائها بـ«الانحطاط»، هذا المفهوم الذي سينتشر في توصيف كثيرين من الدارسين لداء المجتمع العربي عامة، وعدَّه جوهر شقاء الحال في مراحل التاريخ التي سبقت زمن الكواكبي في القرن التاسع عشر، مختلفين في تحديد بدايات تلك المراحل التي

(١) الكواكبي، عبد الرحمن، ٢٠١١ - .تقديم د. محمد لطفي اليوسفي، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، (١٤٣ص). ص ١٣٠.
(٢) الكواكبي، عبد الرحمن، ٢٠١١ - .تقديم د. محمد لطفي اليوسفي، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، (١٤٣ص). ص٣٤.

اضمحلت ظواهر الازدهار التي عرفها التاريخ العربي السابق لها، ساقطة في براثن «انحطاط» طويل، تنوعت أسبابه المحلية والدولية.

يشير الكواكبي إلى اتفاق الباحثين في عصره على توصيف مرض المجتمع بـ «الانحطاط»، وتنوّع مذاهبهم في سبب هذا المرض، ومواقفهم من سبل علاجه، مبيناً موقفه في هذا المضمار بقوله: «إنما هم كسائر الباحثين، كل يذهب مذهبا في سبب الانحطاط، وفي ما هو الدواء، وحيث إني قد تمحَّص عندي أن أصل الداء هو الاستبداد السياسي، ودواؤه ودفعه بالشورى الدستورية»[1].

احتلت ثنائية الجهل والعلم محوراً رئيساً في تحليل الكواكبي لأمراض المجتمع، وسبل البرء منها، فرأى الجهل المهيمن في المجتمع مرتع الاستبداد وممثل وجهه القبيح، يزين للإنسان خموله وانحطاطه في قيوده، بدلاً من نهضته «حراً قائده العقل» كما خلقه الله، يقول مؤكداً ذلك: «من أقبح أنواع الاستبداد، استبداد الجهل على العلم، واستبداد النفس على العقل، ويسمى استبداد المرء على نفسه. وذلك أن الله جلّت نعمه خلق الإنسان حراً قائده العقل، فكفر وأبى إلا أن يكون عبداً قائده الجهل»[2].

أهمية التربية والتعليم، وجعلهما حجر الزاوية في تشييد صروح نهضة الأمة، وترقيها ترقياً يقطع «دابر الاستبداد»، حاسماً المسألة

---

(١) الكواكبي، عبد الرحمن، د.تاريخ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. تحقيق وتقديم د.محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، (١٤٠ص)،.ص ٢٠.
(٢) الكواكبي، عبد الرحمن، د.تاريخ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. تحقيق وتقديم د.محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، (١٤٠ص). ص ٣١.

بقوله: «إن الوسيلة الوحيدة الفعّالة لقطع دابر الاستبداد، هي ترقّي الأمة في الإدراك والإحساس، وهذا لا يتأتّى إلا بالتعليم والتحميس». (طبائع الاستبداد، ص١٣٩). لقد ربط بين التربية والتعليم ربطاً جوهرياً، فرأى أن غايات «التربية تحصل بالتعليم، والتمرين والقدوة والاقتباس»[١]، وهو ربط سيتأسس على قيمه المعرفية، عربياً، بعد زمن طويل من رحيله، استبدال تسميات «وزارات ومديريات التربية والتعليم»، بـ«وزارات ومديريات المعارف».

يبرز تفسيره لظاهرة محاربة العلم في المجتمع، استناداً إلى ما تقدم من توصيفه لدور العلم في تقويض أسس الاستبداد، مما يجعل أدواته تتفنن في محاربة الثقافة والعلم وانتشارهما في المجتمع، فيقول محللاً مقومات هذا العداء بين الاستبداد ونشر الثقافة والعلم: «فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليسمن غرض المستبد أن تتنوَّر الرعية بالعلم»[٢].

خاتمة:

يلاحظ قارئ مؤلفات كتاب النهضة العربية، ولاسيما عبد الرحمن الكواكبي، أن توصيف كل منهم لأمراض المجتمعات العربية، وسبل علاجها، وتحليلها، ما يزالان متصلين بأقنية التفاعل مع مكونات حياتنا

(١) الكواكبي، عبد الرحمن، د.تاريخ - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. تحقيق وتقديم د.محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، (١٤٠ص). ص ٩٦.
(٢) الكواكبي، عبد الرحمن، ٢٠١١ - .تقديم د. محمد لطفي اليوسفي، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، (١٤٣ص). ص٤٧.

المعاصرة ومقدراتها، تفاعلاً يفيد من عثرات الماضي وأخطائه، من جهة، ويضيف من ثراء التجارب الفكرية والثقافية والواقعية المتنوعة، رؤى جديدة، من جهة أخرى.

لقد مثّل كتاب الكواكبي «طبائع الاستبداد» معلماً رئيساً في هذا المضمار، ومن الراجح أن الحاجة لاستمرار ظواهر تجديد طباعته وإصداره ودراسته، على مدارج السنين ستظل ملحة أمام الفعل الثقافي العربي طويلا. ومن الراجح أن العقبات، التي رفعت سداً كتيماً أمام نفوذية الفكر النهضوي عربياً، ودفعه بعناد جنوني إلى مآله المصطدم بانهيارات وانكسارات حادة في مواجهته، يمكن إرجاعها إلى واحدة مركزية منها كأداء، سماها الكواكبي «الجهل» مختزلاً بها، جوهر ساحات المعارك التي خاضتها أحلام النهضة عربياً. إن مثل هذا الإرجاع الذي يعبر عن الوفاء لفكر الكواكبي وأهمية تجديده، يؤسس لحوار جديد مع العدد العربية العتيدة في مواجهة الجهل، في واقع امتد التعليم في ساحاته امتداداً أفقياً واسعاً، مما يستدعي مناقشات جديدة لمكونات التربية والتعليم، وتعزيز سبل مقدراتهما في مواجهة «الجهل».

إذ يجدد المرء سبل الحوار مع كتابات مفكري النهضة العربية، في القرن التاسع عشر، يجد أن مؤسسات ثقافية واجتماعية متنوعة تعاضد دوري التربية والتعليم معاضدة جوهرية، على الدروب التي رسمتها أحلام أولئك المفكرين، لنهضة المجتمع وتحرره من قيود أمراضه، من أهمها مؤسسات الثقافة والإعلام.

المختارات

مختارات من أم القرى

مؤتمر الكواكبي المتخيل الذي لايزال منعقداً !

اختيار خلود أحمد رسول

إنا نجد الباحثين في الحالة النازلة بالمسلمين يُشبّهونها بالمرض فيطلقون عليها اسم الداء مجرداً، أو مع وصفه بالدفين أو المزمن أو العضال، ولعل مأخذ ذلك ما ورد في الأثر وألفته الأسماع من تشبيه المسلمين بالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائره بالسهر والحمى.

ويلوح لي أن إطلاق الفتور العام أليق بأن يكون عنواناً لهذا البحث لتعلق الحالة النازلة بالأدبيات أكثر منها بالماديات، ولأن آخر ما فيها ضعف الحس فيناسبه التعبير عنه بالفتور.

كما أن هذا الفتور في الحقيقة شامل لكافة أعضاء الجسم الإسلامي، فيناسب أن يوصف بالعام، وربما يتوقف الفكر في الوهلة الأولى عند الحكم بأن الفتور عام يشمل كافة المسلمين، ولكن بعد التدقيق والاستقراء نجده شاملاً للجميع في مشارق الأرض ومغاربها لا يسلم منه إلا أفراد شاذة.

فيا أيها السادة: ما هو سبب ملازمة هذا الفتور منذ قرون للمسلمين، من أي قوم كانوا وأينما وجدوا، وكيفما كانت شؤونهم الدينية أو السياسية أو الإفرادية أو المعاشية، حتى أننا لا نكاد نجد إقليمين متجاورين أو ناحيتين في إقليم أو قريتين في ناحية أو بيتين في قرية، أهل أحدهما مسلمون والآخر غير مسلمين، إلا ونجد المسلمين أقل من جيرانهم نشاطاً وانتظاماً في جميع شؤونهم الحيوية الذاتية والعمومية، وكذلك نجدهم أقل اتقاناً من نظرائهم في كل فن وصنعة، مع أننا نرى أكثر المسلمين في الحواضر، وجميعهم في البوادي، ومحافظين على تميزهم عن غيرهم من جيرانهم ومخالطيهم في أمهات المزايا الأخلاقية مثل الأمانة والشجاعة والسخاء.

إذا تتبعنا كل ما ورد في الإسلامية حاثاً على الزهد، نجده موجهاً إلى الترغيب بالأثرة العامة، أي بتحويل المسلم ثمرة سعيه للمنفعة العمومية دون خصوص نفسه، حتى أن كل ما ورد في الحثِّ على الجهاد في سبيل الله مراد وبه سعي المؤمن بكل الوسائل، حتى ببذل حياته، لإعزاز كلمة الله وإقامة دينه، لا في خصوصية محاربة الكفار كما تتوهم العامة، كما أن المراد من محاربة الكفار هي من جهة اعزاز الجامعة الإسلامية، ومن أخرى خدمة الجامعة الإنسانية من حيث إلجاء الكفار إلى مشاركة المسلمين في سعادة الدارين، لأن للأمم المترقّية علماً ولاية طبيعية على الأمم المنحطة،فيجب عليها إنسانية أن تهديها إلى الخير ولو كرهاً باسم الدين أو السياسة.

هذا ونعترف أن فينا بعض أقوام قد ألفوا ألوف سنين الاستبعاد والاستبداد، والذل والهوان، فصار الانحطاط طبعاً لهم تؤلمهم مفارقته، وهذا هو سبب أن السواد الأعظم من الهنود والمصريين والتونسيين لاسيما بعد أن نالوا رغم أنوفهم الأمن على الأنفس والأموال ، والحرية في الآراء والأعمال، لا يرثون ولا يتوجعون لحالة المسلمين في غير بلادهم، بل ينظرون للناقمين على أمرائهم المسلمين شذراً، وربما يعتبرون طالبي الإصلاح من المارقين من الدين، كأن مجرد كون الأمير مسلماً يغني عن كل شيء حتى عن العدل، وكأن طاعته واجبة على المسلمين، وإن كان يخرب بلادهم ويقتل أولادهم ويقودهم ليسلمهم لحكومات أجنبية، كما جرى ذلك قبلاً معهم، والحاصل أن فقدنا الحرية هو سبب الفتور والتقاعس عن كل صعب وميسور.

ولا ريب في أن لهذه الفطرة الدينية في الإنسان علاقة عظمى في شؤون حياته، لأنها أقوى وأفضل وازع يُعدل سائر نواميسه المضرة، ويخفف مرارة الحياة التي لا يسلم منها ابن أنثى، وذلك بما يؤمله المؤمن من المجازاة والمكافأة، والانتقام منه وله.

وعند تدقيق حالة جميع الأديان والنِحَل تدقيقاً تاريخياً، توجد كلها ناشئة عن أصل بسيط سماوي، لا ترى فيه عِوَجا ولا أمتا، يوجد أن كل دين كان في أوليته باثاً في أهله النظام والنشاط، وراقياً بهم إلى أوج السعادة في الحياة، إلى أن يطرأ عليه التأويل والتحريف والتفنن والزيادات رجوعاً إلى أصلين اثنين : (الإشراك بالله، والتشديد في الدين). فيأخذ في الانحطاط بالأمة، ولم يزل نازلاً بها إلى أن تبلغ حالة أقبح من الحالة الأصلية الهمجية، فتنتهي بالانقراض أو الاندماج في أمة أخرى.

أو يتدارك الله تلك الأمة بعناية بالغة، فيبعث لهم رسولاً يجدد دينهم، أو يخلف فيهم أنبياء أو حكماء يصلحون لهم ما فسد من دينهم، كما حصل في الأمم الماضية، كعاد وثمود، وكالسريان واسرائيل وكنعان وإسماعيل، وكما قال الله تعالى : (وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون)

وعند التأمل يوجد الشرك والتشديد كأنهما أمران طبيعيان في الإنسان، يسعى وراءهما جهده بسائق النفس وقائد الشيطان، لأن النفس تميل إلى عبادة المشهود الحاضر أكثر من ميلها إلى عبادة المعقول الغائب، ومفطورة على التشديد رغبة في التميز، والشيطان يسعف النفس بالتسويل والتأويل، إلى أن يفسد الدين.

ثم إذا دققنا حالة الإسلامية في القرون الخالية، نجدها عند أكثر أهل القبلة قد أصابها بعضُ ما أصاب قبلها غيرها من الأديان، كما أخبرنا الله تعالى بقصصها في كتابة المبين، ووعدنا بوقوعنا فيه سيدُ المرسلين، وأرشدنا إلى طرائق التخلص منه إن كنّا راشدين.

أعني بذلك ما طرأ على الإسلامية من التأويل والتحريف في بعض أصولها وكثير من فروعها، حتى استولى عليها التشديد والتشويش، وتطرق لها الشرك الخفي والجلي من يمينها وشمالها، فأمست محتاجة إلى التجديد المبحوث فيه، قال الله تعالى : (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا).

وأنتم أيها السادة الأفاضل، في غناء عن إيضاح ذلك لكم بوجه التفصيل.

ومـن تتبّـع تـواريخ الأمـم الغـابرة وأفكـار الأمـم الحـاضرة، لا يستريب فيما قررناه من أن آفة البشر الشرك الّذي أوضحناه فقط، وكفـى بـالقرآن برهانـاً، فقـد قـال الله تعـالى (ولـئن سـألتهم مـن خَلَـقَ السموات والأرض ليقولن الله). وقال تعالى : (بل إياه تـدعون). وقـال تعالى : (فلا تـدعوا مع الله أحداً). وقـال تعـالى : (مـن ذا الـذي يـشفع عنده إلا بإذنه). إلى غير ذلك من الآيات البينات المثبتة أن زيـغ البـشر هو الإشراك من بعض الوجوه فقط، لا الإنكار و لا الإشراك المطلق، لأن العقل البشري مهما تسفل لا ينزل درجة الشرك المطلق.

إن العلم حجاب، وبلمحةٍ تقع الصلحة، و بنظرة من المرشد الكامل يـصير الـشقي وليـاً وبنفخـة في وجـه المريـد أو تفلـة في فمـه تطيعـه الأفعـى وتحترمه العقرب التي لدغت صاحب الغار عليه الرضوان، وتدخل تحت أمره قوانين الطبيعة. وهم المقررون : بأن الولاية لا ينافيها ارتكاب الكبائر كلها إلا الكذب، وأن الاعتقاد أولى من الانتقاد، وأن الاعـتراض يوجـب الحرمان، أي أن تحسين الظن بالفسّاق و الفجّار أولى من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر. إلى غير ذلك من الأقـوال المهونـة للـدين و الأعـمال التـي تجعله نوعاً من اللهو الذي تستأنس به نفوس الجاهلين.

على أن الناس لو وجدوا الصوفية الحقيقيين، وأين هم ؟ لفروا منهم فرارهم من الأسد، لأن لـيس عنـد هـؤلاء إلا التوسُّـل بالأسـباب العاديـة الشاقة لتطهير النفوس من أمراض إفراط الشهوات، وتصفية القلوب مـن شوائب الشره في حب الدنيا، وحمل الطبائع بوسـائل القهـر والتمـرين عـلى

الاستئناس بالله وبعبادته عوضاً عن الملاهي المضرة، وذلك طلباً للراحة الفكرية والعيشة الهنية في الحياة الدنيا والسعادة الأبدية في الآخرة. وأين التهوين السالف البيان لصوفية الزمان من هذه المطالب التهذيبية الشاقة ؟ ومن حقائق العرفان المعنوية التي لا يعرفها ويتلبس بها إلا من وفّقه الله وكشف عن بصيرته. وذلك نحو العرفان عن يقين وإيمان : أن من أعز كلمة الله أعزه الله، ومن نصر الله نصره الله، ومن توقع الخير أو الشر جازماً نال ما توقع. ومن تَصْفُ نفسه يُلهم رشده، ومن اتكل على الله حقاً كفاه الله ما أهمه، ومن دعا الله مضطراً أجاب دعاءه.إلى غير ذلك من الحقائق المقتبسة من القرآن وأسرار حكمة سيد ولد عدنان صلى الله عليه وسلم.

قال المستشرق :أيها المفتي المحترم، لا يطاوعني لساني أن أدعي الغيرة على الملة البيضاء الأحمدية أكثر منك،إنما أناشدك بالله وبحبك لدينك أن تترك هذه الأوهام التقليدية القائمة في فكرك، وتعينني على تأليف كتاب يصور حكمة الإسلام وسماحته، ليكون سعينا هذا ذخراً عظيماً ننال به فخر وثواب وهداية عشرات الملايين بل مئات الملايين من الناس لهذا الدين المبين، ولا يكبرن ما أقول على فكرك، فإن أهل هذا الزمان المتنورين الأحرار لا يقاسون بأهل الأزمنة المظلمة الغابرة. نعم، وننال أيضاً ثواب حفظ الملايين الكثيرة من أبناء المسلمين العريقين، تلامذة المدارس العصرية، من هجر الإسلامية على صورتها الحاضرة المشوهة باختلاط الحكم بالخرافات، المعطلة بثقل التشديدات المبتدعة،فالبدارِ البدارِ لأن نفوز بهذه الخدمة التي يكاد يعادل أجرها أجر نبي مرسل والله المعين الموفق.

أجابه المفتي: أصبت فيما افتكرت ولنعم ما أشرت به، ولكن هذا عمل مهم، يحتاج القيام به لعناية جمعية يتكون من تضلع أعضائها في فروع العلوم الدينية علم كاف للإحاطة وحصول الثقة ولسوء الحظ لا يوجد من فيهم الكفاءة في هذه البلاد، ولذلك يتحتم علينا أن نترك هذه الفكرة آسفين، وندعو الله تعالى أن يلهم علماء مكة أو صنعاء أو مصر أو الشام القيام بإيفاء هذا الواجب.

يستفاد من مذاكرات جمعيتنا المباركة أن هذا الفتور المبحوث فيه ناشئ عن مجموع أسباب قلائل تمكن مقاومتها بسهولة. وهذه الأسباب منها أصول،ومنها فروع لها حكم الأصول. وكلها ترجع إلى ثلاثة أنواع: وهي أسباب دينية، وأسباب سياسية،وأسباب أخلاقية. وإني أقرأ عليكم خلاصاتها من جدول الفهرست الذي استخرجته من مباحث الجمعية رامزاً للأصول منها بحرف (الألف) وللفروع منها بحرف (الفاء) وهي[1]:

- **النوع الأول: الأسباب الدينية...**

١ - تأثير عقيدة الجبر في أفكار الأمة (أ).

٢ - تأثير المزهدات في السعي والعمل وزينة الحياة (ف).

٣ - تأثير فتن الجدل في العقائد الدينية (أ).

٤ - الاسترسال للتخالف والتفرق في الدين (أ).

٥ - الذهول عن سماحة الدين وسهولة التدين به (أ).

٦ - تشديد الفقهاء المتأخرين في الدين خلافاً للسلف (أ).

٧ - تشويش أفكار الأمة بكثرة الآراء في فروع أحكام الدين (أ).

---

(١) حين يرد رمز (أ) يعني الأصول ورمز (ف) يعني الفروع.

٨ -فقد إمكان مطابقة القول للعمل في الدين بسبب التخليط والتشديد (ف).

٩ - إدخال العلماء المدلسين على الدين مقتبسات كتابية وخرافات وبدعاً مضرة (أ).

١٠ - تهوين غلاة الصوفية الدين وجعلهم إياه لهواً ولعباً (ف) .

١١ - إفساد الدين بتفنن المداجين بمزايدات ومتروكات وتأويلات (ف) .

١٢ - إدخال المدلسين و المقابرية على العامة كثيراً من الأوهام (أ) .

١٣ - خلع المنجمين والرمالين والسحرة والمشعوذين قلوب المسلمين بالمرهبات (ف) .

١٤ - إيهام الدجالين و المداجين أن في الدين أموراً سرية وأن العلم حجاب (أ) .

١٥ - اعتقاد منافاة العلوم الحكمية والعقلية للدين (أ) .

١٦ - تطرق الشرك الصريح أو الخفي إلى عقائد العامة (ف) .

١٧ - تهاون العلماء العاملين في تأييد التوحيد(ف) .

١٨ - الاستسلام للتقليد وترك التبصر و الاستهداء (ف) .

١٩ - التعصب للمذاهب ولآراء المتأخرين وهجر النصوص ومسلك السلف (ف) .

٢٠ - الغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة وجمعية الحج (أ) .

٢١ - العناد على نبذ الحرية الدينية جهلاً بمزيتها (ف) .

٢٢ - التزام مالا يلزم لأجل الاستهداء من الكتاب والسنة (ف) .

٢٣ - تكليف المسلم نفسه ما لا يكلفه به الله وتهاونه فيما هو مأمور به (ف) .

• **النوع الثاني: الأسباب السياسية.....**

٢٤ - السياسة المطلقة من السيطرة والمسؤولية (أ) .

٢٥ - تفرق الأمة إلى عصبيات وأحزاب سياسية (ف) .

٢٦ - حرمان الأمة العربية من حرية القول والعمل، وفقدانها الأمن والأمل(ف).

٢٧ - فقد العدل والتساوي في الحقوق بين طبقات الأمة (ف) .

٢٨ - ميل الأمراء طبعاً للعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين (ف) .

٢٩ - حرمان العلماء العاملين وطلاب العلم من الرزق والتكريم(أ) .

٣٠ - اعتبار العلم عطية يحسن بها الأمراء على الأخصاء، وتفويض خدمة الدين للجهلاء (أ) .

٣١ - قلب موضوع أخذ الأموال من الأغنياء وإعطائها للفقراء(أ) .

٣٢ - تكليف الأمراء القضاة والمفتين أموراً تهدم دينهم (ف) .

٣٣ - إبعاد الأمراء النبلاء و الأحرار وتقريبهم المتملقين والأشرار (أ).

٣٤ - مراغمة الأمراء السراة والهداة والتنكيل بهم (ف) .

٣٥ - فقد قوة الرأي العام بالحجر والتفريق (ف) .

٣٦ - حماقة أكثر الأمراء وتمسكهم بالسياسات الخرقاء(ف) .

٣٧ - إصرار أكثر الأمراء على الاستبداد عناداً واستكباراً (ف) .

٣٨ - انغماس الأمراء في الترف ودواعي الشهوات، وبعدهم عن المفاخرة بغير الفخفخة والمال (ف) .

٣٩ - حصر الاهتمام السياسي بالجباية والجندية فقط (أ) .

• النوع الثالث: الأسباب الأخلاقية....

٤٠ - الاستغراق في الجهل والارتياح إليه (أ) .

٤١ - استيلاء اليأس من اللحاق بالفائزين في الدين والدنيا (ف) .

٤٢ - الإخلاد إلى الخمول ترويحاً للنفس (ف) .

٤٣ - فقد التناصح وترك البغض في الله (أ) .

٤٤ - انحلال الرابطة الدينية الاحتسابية (أ) .

٤٥ - فساد التعليم والوعظ والخطابة والإرشاد (ف) .

٤٦ - فقد التربية الدينية والأخلاقية (أ) .

٤٧ - فقد قوة الجمعيات وثمرة دوام قيامها (أ) .

٤٨ - فقد القوة المالية الاشتراكية بسبب التهاون في الزكاة (أ) .

٤٩ - ترك الأعمال بسبب ضعف الآمال (ف) .

٥٠ - إهمال طلب الحقوق العامة جبناً وخوفاً من التخاذل (ف) .

٥١ - غلبة التخلق بالتملق تزلفاً وصغاراً (ف) .

٥٢ - تفضيل الارتزاق بالجندية والخدم الأميرية على الصنائع (ف) .

٥٣ - توهم أن علم الدين قائم في العمائم وفي كل ما سطر في كتاب (ف) .

٥٤ - معاداة العلوم العالية ارتياحاً للجهالة والسفالة (أ) .

٥٥ - التباعد عن المكاشفات والمفاوضات في الشؤون العامة (أ) .

٥٦ - الذهول عن تطرق الشرك و شآمته (أ) .

ثم قال السيد الفراتي: هذه هي خلاصات أسباب الفتور التي أوردها أخوان الجمعية وليس مكررات كما يُظن. وحيث كان للخلل الموجود في أصول إدارة الحكومات الإسلامية دخل مهم في توليد الفتور العام، فاني أضيف إلى الأسباب التي سبق البحث فيها من قبل الأخوان الكرام الأسباب الآتية، أعددها من قبيل رؤوس مسائل فقط، حيث لو أردت تفصيلها وتشريحها لطال الأمر ولخرجنا عن صدد محفلنا هذا.

والأسباب التي سأذكرها هي أصول موارد الخلل في السياسة والإدارة الجاريتين في المملكة العثمانية، التي هي أعظم دولة يهم شأنها عامة المسلمين. وقد جاءها أكثر هذا الخلل في الستين سنة الأخيرة، أي بعد أن اندفعت لتنظيم أمورها، فعطّلت أصولها القديمة ولم تحسن التقليد ولا الإبداع، فتشتّت حالها ولا سيما في العشرين سنة الأخيرة التي ضاع فيها ثلث المملكة، وخرب الثلث الباقي وأشرف على الضياع لفقد الرجال وصرف السلطان قوة سلطنته كلها في سبيل حفظ ذاته الشريفة وسبيل الإصرار على سياسة الانفراد.

وأما سائر الممالك والإمارات الإسلامية فلا تخلو أيضاً من بعض هذه الأصول، كما أن فيها أحوالاً أخرى أضرّ و أمرّ يطول بيانها واستقصاؤها.

والأسباب المراد إلحاقها ملخصة هي:

- **الأسباب السياسية والإدارية الجارية في المملكة العثمانية:**

٥٧ - توحيد قوانين الإدارة والعقوبات، مع اختلاف طبائع أطراف المملكة واختلاف الأهالي في الأجناس والعادات (أ) [١].

٥٨ - تنويع القوانين الحقوقية، وتشويش القضاء في الأحوال المتماثلة (أ) .

٥٩ - التمسك بأصول الإدارة المركزية مع بعد الأطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الإدارة في المركز على أحوال تلك الأطراف المتباعدة وخصائص سكانها (ف) .

٦٠ - التزام أصول عدم توجيه المسؤولية على رؤساء الإدارة والولاة عن أعمالهم مطلقاً (ف) [٢].

٦١ - تشويش الإدارة بعدم الالتفات لتوحيد الأخلاق والمسالك في الوزراء والولاة والقواد، مع اضطرار الدولة لاتخاذهم من جميع الأجناس و الأقوام الموجودين في المملكة بقصد استرضاء الكل (ف) .

٦٢ - التزام المخالفة الجنسية في استخدام العمال بقصد تعسر التفاهم بين العمال والأهالي، وتعذر الامتزاج بينهم لتأمين الإدارة غائلة الاتفاق عليها (ف) .

---

(١) من أهم الضروريات أن يحصل كل قوم من أهالي تركيا على استقلال نوعي إداري يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم، كما هي الحالة في إمارات ألمانيا وولايات أمريكا الشمالية، وكما يفعله الإنكليز في مستعمراتهم والروس في أملاكهم.

(٢) ولذلك كانت الحالة في الدولة قبل التنظيمات الخيرية خيراً منها بعدها، حيث كان العمال مسؤولين لدى حضرة السلطان ثم أُطلق سراحهم في عهدنا من كل مسؤولية، إلاّ في الأفعال بل الأقوال بل الخواطر التي تتعلق بحقوق السلطنة.

٦٣ - التزم تفويض الإمارات المختصة عادة ببعض البيوت، كإمارة مكة وإمارات العشائر الضخمة في الحجاز والعراق والفرات لمن لا يحسن إدارتها، لأجل أن يكون الأمير منفوراً ممن ولّي عليهم مكروهاً عندهم فلا يتفقون معه ضد الدولة (أ) .

٦٤ - التزام توليه بعض المناصب المختصة ببعض الأصناف كالمشيخة الإسلامية والسر عسكرية لمن يكون منفوراً في صنفه من العلماء أو الجند لأجل أن لا يتفق الرئيس والمرؤوس على أمرهم (أ)[١].

٦٥ - التمييز بين أجناس الرعية في الغنم والعزم[٢].

٦٦ - التساهل في انتخاب العمال المأمورين والإكثار منهم بغير لزوم، وإنما بقصد إعاشة العشيرة والمحاسيب والمتملقين الملحّين.

٦٧ - التسامح في المكافأة والمجازاة تهاوناً بشؤون الإدارة حسنت أم ساءت كأن ليس للملك صاحب.

٦٨ - عدم الالتفات لرعاية المقتضيات الدينة كوضع أنظمة مصادمة للشرع بدون لزوم سياسي مهم، أو مع اللزوم

---

(١) هكذا تكون احتياطات الحكومات العاجزة.

(٢) كهضم الدولة العثمانية حقوق العرب في المناصب والارتزاق في بيت المال هضماً لا نسبة فيه لأنها مميزة عليهم، حال كونهم ثلثي رعيتها، كلاً من الجركس والبشناق والأكراد والأرناؤوط والروم والأرمن والكروات والبلغار والعربكير.

وكاستثناء أهل العاصمة والحجاز وغيرهم حتى بعض البيوت من الخدمة العسكرية والتكاليف الشرعية والعرفية.

وكاستثناء غير المسلمين من الخدمة العسكرية لمجرد كونهم لا يتحملون حالة الضنك التي عليها جيشها.

ولكن بدون اعتناء بتفهيمه للأمة والاعتذار لها جلياً للقناعة والرضا(١).

٦٩ - تضييع حرمة الشرع وقوة القوانين بالتزام عدم اتباعها وتنفيذها، والإصرار على أن تكون الإدارة نظامية اسماً، إرادية فعلاً(٢).

٧٠ - التهاون في مجاراة عادات الأهالي وأخلاقهم ومصالحهم استجلاباً لمحبتهم القلبية فوق طاعتهم الظاهرية.

٧١ - الغفلة أو التغافل عن مقتضيات الزمان ومباراة الجيران وترقية السكان بسبب عدم الاهتمام بالمستقبل.

٧٢ - الضغط على الأفكار المتنبهة بقصد منع نموها وسموها واطلاعها على مجاري الإدارة، محاسنها ومعايبها، وإن كان الضغط على النمو الطبيعي عبثاً محضاً، ويتأتى منه الإغراء والتحفز وينتج عنه الحقد على الإدارة.

٧٣ - تميز الأسافل أصلاً وأخلاقاً وعلماً وتحكيمهم في الرقاب الحرة وتسليطهم على أصحاب المزايا، وهذا التهاون بشأن ذوي الشؤون يستلزم تسفل الإدارة.

٧٤ - إدارة بيت المال إدارة إطلاق بدون مراقبة، وجزاف بدون موازنة، وإسراف بدون عتاب، وإتلاف بدون حساب، حتى صارت المملكة مديونة للأجانب بديون ثقيلة توفى بلاداً ورقاباً ودماء وحقوقاً.

---

(١) كاستخدام اليهود قابضي مال أي أمناء صناديق، وقابضي أعشار السوائم، وفي ذلك عدم رعاية المذاهب التي تستوجب أن لا تسقط الزكاة عن الدافعين، وكاستخدام قضاة بالرسوم أو برواتب جزئية جداً.

(٢) تعطيل بعض أحكام الشرع كاف لخرق حرمته، وأما الأحكام النظامية فمع كثرتها البالغة عشرات ألوف قضايا لم يتفق إلى الآن إجراء شيء منها إلا بعض ما يتعلق بسلب الأموال.

٧٥ - إدارة المصالح المهمة السياسية والملكية بدون استشارة الرعية ولا قبول مناقشة فيها. وإن كانت إدارة مشهودة المضرة في كل حركة وسكون.

٧٦ - إدارة الملك إدارة مداراة وإسكات للمطلعين على معايبها حذراً من أن ينفثوا ما في الصدور فتعلم العامة حقائق الأمور، والعامة من إذا علموا قالوا، وإذا قالوا فعلوا وهنالك الطامة الكبرى.

٧٧ - إدارة السياسة الخارجية بالتزلف والإرضاء والمحاباة بالحقوق والرشوة بالامتيازات والنقود، تبذل الإدارة ذلك للجيران بمقابلة تعاميهم عن المشاهد المؤلمة التخريبية، وصبرهم على الروائح المتننة الإدارية. ولولا تلك المشاهد و الروائح لما وجد الجيران وسيلة للضغط مع ما ألقاه الله بينهم من العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

ثم قال السيد الفراتي :إن بعض هذه الأسباب التي ذكرتها، هي أمراض قديمة ملازمة لإدارة الحكومة العثمانية منذ نشأتها أو منذ قرون، وبعضها أعراض وقتية تزول بزوال محدثها، وربما كان يمكن الصبر عليها لولا أن الخطر قرب ـ والعياذ بالله ـ من القلب كما أشار إليه الأستاذ الرئيس في خطابه الأول[1].

(١) أشار حضرة الرئيس وهو الأستاذ المكي في خطابه الأول للحالة السيئة في الحجاز من فقد الأمان في بلد الله الأمين، والجور الفظيع الذي يقع على أهل الحرمين وزوارهما من تنازع السلطات الثلاث الإمارة والولاية والعسكرية، وغير ذلك من الأحوال التي لا تطاق وصار يتشكى منها عامة الحجاج، لاسيما الداخلين تحت سلطة الأجانب وهم السواد الأعظم من المسلمين. ولا غرو أن هذه الحال تستدعيهم لأن يدعوا حكوماتهم للمداخلة في شؤون إدارة الحجاز، لأجل حصولهم على الأمن والراحة، وحينئذ لا قدر الله يتفانى العرب دون حفظ بيضة الإسلام كما تفانوا قبلاً وحدهم في دفع الصليبيين عن المسجد الاقصى.

ثم قال: ويلتحق بهذه الأسباب بعض أسباب شتى أفصلها بعد تعدادها إلحاقا بالخلاصات. وهي:

- **أسباب شتى:**

٧٨ - عدم تطابق الأخلاق بين الرعية والرعاة.

٧٩ - الغرارة أي الغفلة عن ترتيب شؤون الحياة.

٨٠ - الغرارة عن لزوم توزيع الأعمال والأوقات.

٨١ - الغرارة عن الإذعان للإتقان.

٨٢ - الغرارة عن موازنة القوة والاستعداد.

٨٣ - ترك الاعتناء بتعليم النساء.

٨٤ - عدم الالتفات للكفاءة في الزوجات.

٨٥ - الخور في الطبيعة، أي سقوط الهمة.

٨٦ - للاعتزال في الحياة والتواكل.

أما عدم التطابق في الأخلاق بين الرعاة والرعية، فله شأن كما يظهر للمتأمل المدقق في تواريخ الأمم من أن أعاظم الملوك الموفقين والقواد الفاتحين كالإسكندريين، وعمر وصلاح الدين رضي الله عنهما، وجنكيز والفاتح وشرلكان الألماني وبطرس الكبير وبونابرت، لم يفوزوا في تلك العظائم

إلا بالعزائم الصادقة مع مصادقة تطابقهم مع رعاياهم وجيوشهم في الأخلاق والمشارب تطابقاً تاماً، بحيث كانوا رؤساء حقاً لتلك الأجسام لا كرأس جميل على جسم ثور أو بالعكس. وهذا التطابق وحده يجعل الأمة تعتبر رئيسها رأسها، فتتفانى دون حفظه ودون حكم نفسها بنفسها، حيث لا يكون لها في غير ذلك فلاح أبداً.

من طبائع الاستبداد....
(عدالة الاستبداد)

-١-

الحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغباوة، فإذا ارتفع الجهل وتنوَّر العقل زال الخوف، وأصبح الناس لا ينقادون طبعاً لغير منافعهم، كما قيل: العاقل لا يخدم غير نفسه، وعند ذلك لابدّ للمستبدّ من الاعتزال أو الاعتدال. وكم أجبرت الأمم بترقيّها المستبدّ اللئيم على الترقّي معها والانقلاب – رغم طبعه – إلى وكيل أمين يهاب الحساب، ورئيس عادل يخشى الانتقام، وأب حليم يتلذذ بالتحابب. وحينئذٍ تنال الأمة حياة رضية هنية، حياة رخاء ونماء، حياة عز وسعادة، ويكون حظ الرئيس من ذلك رأس الحظوظ، بعد أن كان في دور الاستبداد أشقى العباد، لأنه على الدوام ملحوظاً بالبغضاء، مُحاطاً بالأخطار، غير أمين على رياسته، بل وعلى حياته طرفة عين، ولأنه لا يرى قط أمامه من يسترشده فيما يجهل، لأن الواقف بين يديه مهما كان عاقلاً متيناً، لا بد أن يهابه، فيضطرب باله، فيتشوش فكره، ويختل رأيه، فلا

يهتدي على الصواب، وإن اهتدى فلا يجسر على التصريح به قبل استطلاع رأي المستبدّ، فإن رآه متصلباً فيما يراه فلا يسعه إلا تأييده راشداً كان أو غيّا، وكلُّ مستشار غيره يدَّعي أنه غير هيَّاب فهو كذاب(١).

-٢-

العوام الذين هم قليلو المادة في الأصل قد يصل مرضهم العقلي إلى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر،في كلّ ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية. ويصل تسفُّل إدراكهم إلى أنَّ مجرد آثار الأبهة والعظمة التي يرونها على المستبدّ وأعوانه تبهر أبصارهم، ومجرد سماع ألفاظ التفخيم في وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم، فيرون ويفكرون أنَّ الدواء في الداء، فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين أيدي الذئاب، حيث هي تجري على قدميها جاهدةً إلى مقر حتفها(٢).

* * *

-٣-

نعم: الأقوام كالآجام، إن تُركت مهملة تزاحمت أشجارها وأفلاذها، وسقُم أكثرها، وتَغَلَّبَ قويها على ضعيفها فأهلكه، وهذا مثل القبائل المتوحشة. وإن صادفت بستانياً يهمه بقاؤها وزهوها فدبّرها حسبما تطلبه طباعها، قويت وأينعت وحسُنت ثمارها، وهذا مثل الحكومة العادلة. وإذا

(١) عبد الرحمن الكواكبي - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد – ص ٤٧.
(٢) عبد الرحمن الكواكبي - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد – ص ٤٧.

بُليت ببستانيّ جدير بأن يسمى حطاباً لا يعنيه إلا عاجل الاكتساب، أفسدها وخرّبها، وهذا مثل الحكومة المستبدّة. ومتى كان الحطّاب غريباً لم يُخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار، إنما همُّه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الأصول، فهناك الطامّة وهناك البوار.

فبناءً على هذا المثال، يكون فعل الاستبداد في أخلاق الأمم فعل ذلك الحطّاب الذي لا يُرجى منه غير الإفساد[1].

* * *

- ٤ -

من أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس، وهو كالحيوان المملوك العنان، يُقاد حيث يُراد، ويعيش كالريش، يهبُّ، حيث يهبُّ الريح، لا نظام ولا إرادة ؟ وما هي الإرادة ؟ هي أمُّ الأخلاق، هي ما قيل فيها تعظيماً لشأنها : لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة ! هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النبات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة. فالأسير، إذن، دون الحيوان لأنه يتحرك بإرادة غيره لا بإرادة نفسه. ولهذا قال الفقهاء : لا نيّة للرقيق في كثير من أحواله، إنما هو تابع لنية مولاه. وقد يُعذر الأسير على فساد أخلاقه، لأن فاقد الخيار غير مؤاخذ عقلاً وشرعاً[2].

* * *

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد – ص ٨٠.

(٢) عبد الرحمن الكواكبي - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد – ص ٨٠.

- ٥ -

أسير الاستبداد لا نظام في حياته، فلا نظام في أخلاقه، قد يصبح غنياً فيضحي شجاعاً كريماً، وقد يمسي فقيراً فيبيت جباناً خسيساً، وهكذا كلُّ شؤونه تشبه الفوضى لا ترتيب فيها، فهو يتبعها بلا وجهة.

أليس الأسير قد يُرهق، ويُسيء كثيراً فيُعفى، وقليلاً فيُشنق، ويجوع يوماً فيضوى، ويخصب يوماً فيُتخم، يريد أشياء فيُمنَع، ويأبى شيئاً فيرغم ؟! وهكذا يعيش كما تقتضيه الصُّدف أن يعيش، ومن كانت هذه حاله كيف يكون له أخلاق، وإن وجد ابتداء يتعذر استمراره عليه ؟! ولهذا لا تجوّز الحكمة الحُكمَ على الأسراء بخير أم شر.

* * *

- ٦ -

أقلُّ ما يؤثّره الاستبداد في أخلاق الناس، أنه يرغم حتى الأخيار منهم على إلفة الرياء والنفاق ولبئس السيئتان، وإنه يعين الأشرار على إجراء غيّ نفوسهم آمنين من كل تبعة ولو أدبية، فلا اعتراض ولا انتقاد ولا افتضاح، لأن أكثر أعمال الأشرار تبقى مستورة، يلقي عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة على ذي شر وعقبى ذكر الفاجر بما فيه. ولهذا، شاعت بين الأسرار قواعد كثيرة باطلة كقولهم : إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، وقولهم : البلاء موكولٌ بالمنطق. وقد تغالى وعّاظهم في سدِّ أفواههم حتى جعلوا لهم أمثال هذه

الأقوال من الحِكمَ النبوية، وكم هجوا لهم الهجو والغيبة بلا قيد، فهم يقرؤون : (لا يحبُّ الله الجهر بالسوء من القول) ويغفلون بقية الآية، وهي : (إلاّ مَن ظُلِم)(١).

* * *

- ٧ -

أسير الاستبداد العريق فيه يرث شرَّ الخصال، ويتربّى على أشرِّها ولا بدَّ أن يصحبه بعضها مدى العمر. بناءً عليه، ما أبعده عن خصال الكمال! ويكفيه مفسدةً لكلّ الخصال الطبيعية والشرعية والاعتيادية تلبسه بالرياء اضطراراً حتى لا يألفه ويصير مَلَكةَ فيه،فيفقد بسبب ثقته نفسه بنفسه، لأنه لا يجد خُلُقاً مستقراً فيه، فلا يمكنه، مثلاً، أن يجزم بأمانته، أو يضمن ثباته على أمر من الأمور، فيعيش سيء الظن في حق ذاته متردداً في أعماله، لوَّاماً نفسه على إهماله شؤونه، شاعراً بفتور همته ونقص مروءته، ويبقى طول عمره جاهلاً مورد هذا الخلل، فيتَّهِم الخالق – والخالق – جلَّ شأنه – لم يُنقصه شيئاً. ويتهم تارةً دينه، وتارةً تربيته، وتارةً زمانه، وتارةً قومه، والحقيقة بعيدة عن كل ذلك، وما الحقيقة غير أنه خُلِق حراً فأُسِر(٢).

* * *

(١) عبد الرحمن الكواكبي - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد – ص ٨١.
(٢) عبد الرحمن الكواكبي – طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد – ص٨٣.

هنا أستوقف المطالع و أستلفته إلى التأمل في ما هي ثمرة الاشتراك التي يحرمها الأسراء، فأذكره بأن الاشتراك هو أعظم سرٍّ في الكائنات، به قيام كلّ شيء ما عدا الله وحده. به قيام الأجرام السماوية ؛ به قيام كلّ حياة ؛به قيام المواليد؛ قيام الأجناس و الأنواع ؛ به قيام الأمم والقبائل ؛ به قيام العائلات ؛ به تعاون الأعضاء. نعم، الاشتراك فيه سرُّ تضاعف القوة بنسبة ناموس التربيع ؛ فيه سرُّ الاستمرار على الأعمال التي لا تفي بها أعمار الأفراد. نعم ؛ الاشتراك هو السرُّ كل السرّ في نجاح الأمم المتمدنة. به أكملوا ناموس حياتهم القومية، به ضبطوا نظام حكوماتهم، به قاموا بعظائم الأمور، به نالوا كل ما يغبطهم عليه أُسراء الاستبداد الذين منهم العارفون بقدر الاشتراك ويتشوَّقون إليه، ولكن ؛ كلٌّ منهم يُبطن لغبن شركائه باتِّكاله عليهم عملاً، واستبداده عليهم رأياً، حتى صار من أمثالهم قولهم :

«ما من متَّفقين إلاّ واحدهما مغلوبٌ للآخر».

فأُجيبه بأن الكتّاب كتبوا و أكثروا و أحسنوا فيما فصّلوا وصوَّروا، ولكن ؛ قاتل الله الاستبداد و شؤمه، جعل الكتَّاب يحصرون أقوالهم في الدعوة إلى الاشتراك، وما بمعناه من التعاون و الاتحاد و التحابب و الاتِّفاق، ومنعهم من التعرض لذكر أسباب التفرّق والانحلال كلياً، أو اضطرهم إلى الاقتصار على بيان الأسباب الأخيرة

فقط. فمن قائلٍ مثلاً: الشرق مريضٌ وسببه الجهل، ومن قائلٍ: الجهل بلاء وسببه قلّة المدارس، ومن قائلٍ: قلّة المدارس عارٌ وسببه عدم التعاون على إنشائها من قبل الأفراد أو من قبل ذوي الشأن.

وهذا أعمق ما يخطُّه قلم الكاتب الشرقي كأنه وصل إلى السبب المانع الطبيعي أو الاختياري. و الحقيقة، أنَّ هناك سلسلة أسباب أخرى حلقتها الأولى الاستبداد.

وكاتب آخر يقول: الشرق مريض وسببه فقط التمسك بالدين، ثمَّ يقف، مع أنه لو تتبَّع الأسباب لبلغ إلى الحكم بأنَّ التهاون في الدين أولاً وآخر ناشئ من الاستبداد..

وآخر يقول: إنَّ السبب فساد الأخلاق، وغيره يرى أنه فقد التربية، وسواء ظنَّ أنه الكسل، و الحقيقة أنَّ المرجع الأول في الكلّ هو الاستبداد، الذي يمنع حتى أولئك الباحثين عن التصريح باسمه المهيب(1).

* * *

- ٩ -

أما أسير الاستبداد، فيعيش خاملاً خامداً ضائع القصد، حائراً لا يدري كيف يميت ساعاته و أوقاته و يدرج أيامه و أعوامه، كأنه حريصٌ على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب. و يخطئ، والله من يظنُّ أنَّ أكثر الأسراء لاسيما منهم الفقراء لا يشعرون بآلام الأسر.

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي – طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد – ص ٨٥.

مستدلاً بأنهم لو كانوا يشعرون لبادروا إلى إزالته، و الحقيقة في ذلك أنهم يشعرون بأكثر الآلام و لكنهم لا يدركون ما هو سببها، و من أين جاءتهم ؟ فيرى أحدهم نفسه منقبضاً عن العمل، لأنه غير أمين على اختصاصه بالثمرة. و ربما ظنَّ السلب حقاً طبيعياً للأقوياء فيتمنى أن لو كان منهم. ثم يعمل تارةً، و لكن ؛ بدون نشاط و لا إتقان، فيفشل ضرورةً، و لا يدري أيضاً ما السبب، فيغضب على ما يسميه سعداً أو حظاً أو طالعاً أو قَدَراً. و المسكين من أين له أن يعرف أنَّ النشاط و الإتقان لا يتأتيان إلا مع لذة انتظار نجاح العمل، تلك اللذة التي قدَّر الحكماء أنها اللذة الكبرى، لاستمرار زمانها من حين العزم إلى تمام العمل، والأسير لا اطمئنان فيه على الاستمرار، و لا تشجيع له على الصبر و الجلد.

* * *

- ١٠ -

الأسير المعذّب المنتسب إلى دين يسلّي نفسه بالسعادة الأخروية، فيعدها بجنان ذات أفنان و نعيم مقيم أعدَّه له الرحمن، ويبعد عن فكره أن الدنيا عنوان الآخرة، وأنَّ ربما كان خاسراً الصفتين، بل ذلك هو الكائن غالباً. ولبسطاء الإسلام مسلمات أظنُّها خاصّة بهم يعطفون مصائبهم عليها، وهي نحو قولهم :الدنيا سجن المؤمن، المؤمن مصاب،إذا أحب الله عبداً ابتلاه، هذا شأن آخر الزمان، حسب المرء لقيماتٍ يقمن صلبه. ويتناسون حديث :«إنَّ الله يكره العبد البطّال»، والحديث المفيد معنى«إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسةً

فليغرسها»، ويتغافلون عن النص القاطع المؤجّل قيام الساعة إلى ما بعد استكمال الأرض زخرفتها و زينتها. وأين بعد ذلك؟

وكلُّ هذه المسميات المثبطات تهون عند ذلك السمّ القاتل، الذي يحوّل الأذهان عن التماس معرفة سبب الشقاء، فيرفع المسؤولية عن المستبدين، ويلقيها على عاتق القضاء و القدر، بل على عاتق الأسراء المساكين أنفسهم. وأعني بهذا السمّ، فَهْم العوام، وبله الخواص،لما ورد في التوراة من نحو :«اخضعوا للسلطان و لا سلطة إلا من الله»، و«الحاكم لا يتقلّد السيف جزافاً، إنه مقام للانتقام من أهل الشر»، وقد صاغ وعّاظ المسلمين و محدِّثوهم من ذلك قولهم :«السلطان ظل الله في الأرض»، و«الظالم سيف الله ينتقم به، ثم ينتقم منه»

و«الملوك ملهمون». هذا و كل ما ورد في هذا المعنى إن صحَّ التعبير مقيّد بالعدالة أو محتمل للتأويل بما يُعقل، وبما ينطبق على حكم الآية الكريمة التي فيها فصل الخطاب، وهي: (ألا لعنة الله على الظالمين)، وآية (فلا عدوان إلا على الظالمين)[1].

* * *

- ١١ -

ما أبعد الأسراء عن الاستعداد لقبول التربية،وهي قصر النظر على المحاسن والعِبر، وقصر السمع على الفوائد و الحِكَم، و تعويد اللسان على

---

(١) عبدالرحمن الكواكبي – طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد – ص ٩٤.

قول الخير، و تعويد اليد على الإتقان، وتكبير النفس على السفاسف، وتكبير الوجدان عن نصرة الباطل، و رعاية الترتيب في الشؤون، ورعاية التوفير في الوقت و المال. والاندفاع بالكلّية لحفظ الشرف، لحفظ الحقوق،

ولحماية الدين، لحماية الناموس، ولحبّ الوطن، لحبّ العائلة، ولإعانة العلم، لإعانة الضعيف، ولاحتقار الظالمين، لاحتقار الحياة. على غير ذلك مما لا ينبت إلا في أرض العدل، تحت سماء الحرية، في رياض التربيتين العائلية و القومية(١).

* * *

- ١٢-

إنّ عبيد السلطان التي لا حدود لها هم غير مالكين أنفسهم، ولا هم آمنون على أنهم يربّون أولادهم لهم. بل هم يربّون أنعاماً للمستبدّين، وأعواناً لهم عليهم. و في الحقيقة، إنَّ الأولاد في عهد الاستبداد، هم سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهوان و الخوف والتضييق. فالتوالد من حيث هو زمن الاستبداد حمق، و الاعتناء بالتربية حمقٌ مضاعف !وقد قال الشاعر :

إن دام هذا و لم تحدث له غِيَرٌ لم يبكِ ميتٌ ولم يُفرح بمولودِ

وغالب الأُسراء لا يدفعهم للزواج قصد التوالد، إنما يدفعهم إليه الجهل المظلم، وأنهم حتى الأغنياء منهم محرومون من كلِّ الملذّات الحقيقية :

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي – طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد – ص .

كلذّة العلم و تعليمه، ولـذّة المجد و الحماية، ولـذّة الإيثار و البـذل، ولـذّة إحراز مقام في القلوب، ولذّة نفوذ الرأي الصائب، ولذّة كِبَرِ النفس عند السفاسف، إلى غير ذلك من الملذّات الروحية[1].

* * *

- ١٣ -

أما ملذّات هؤلاء التعساء فهي مقصورة على لذّتين اثنتين ؛ الأولى منها لذة الأكل، و هي جعلهم بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسّرت، و إلا فمزابل للنباتات، أو بجعلهم أجسامهم في الوجود كما قيل : أنابيب بين المطبخ و (الكنيف)، أو جعلها معامل لتجهيز الأخبثين. واللذّة الثانية هي الرعشة باستفراغ الشهوة، كأن أجسامهم خلقت دمامل جرب على أديم الأرض، يطيب لها الحكّ ووظيفتها توليد الصديد و دفعه، و هذا الشره البهيمي في البِعال هو ما يعمي الأسراء و يرميهم بالزواج و التوالد.

* * *

- ١٤ -

العِرض – زمن الاستبداد – كسائر الحقوق غير مصون، بل هو معرَّض لهتك الفُسّاق من المستبدين و الأشرار من أعوانهم، فإنهم، كما أخبر القرآن عن الفراعنة، يأسرون الأولاد و يستحيون النساء،

(١) عبد الرحمن الكواكبي – طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد – ص .

خصوصاً في الحواضر الصغيرة و القرى المستضعف أهلها. ومن الأمور المشاهدة أنَّ الأمم التي تقع تحت أسر أمةٍ تغايرها في السيماء، لا يمضي عليها أجيال إلا و تغشو فيها سيماء الآسرين: كسواد العيون في الإسبانيول، و بياض البشرة في الأفريقيين. وعدم الاطمئنان على العِرض يُضعف الحبُّ الذي لا يتم إلا بالاختصاص، و يُضعف لصقة الأولاد بأزواج أمهاتهم، فتضعف الغَيرة على تحمّل مشاق التربية، تلك الغيرة التي لأجلها شرَّع الله النكاح، وحرَّم السِّفاح.

* * *

- ١٥ -

إذا افتكرنا كيف ينشأ الأسير في البيت الفقير، وكيف يتربى،نجد أنه يُلقَّح به، و في الغالب أبواه متناكدان متشاكسان، ثم إذا تحرك جنيناً حرَّك شراسة أمه فتشتمه، أو زاد آلام حياتها فتضربه، فإذا ما ضيَّقت عليه بطنها لإلفتها الانحناء خمولاً و التصرر صغاراً، و التقلُّص لضيق فراش الفقر، ومتى و لدته ضغطت عليه بالقماط اقتصاداً و جهلاً،إذا تألم و بكى سدَّت فمه بثديها، أو قطعت نفسه خضَّاً أو بدوار السرير، أو سقته مخدراً عجزاً عن نفقة الطبيب،فإذا ما فُطِمَ، يأتيه الغذاء الفاسد يضيق معدته، ويفسد مزاجه، فإذا كان قوي البنية طويل العمر و ترعرع، يُمنع من رياضة اللعب لضيق البيت، فإذا سأل و استفهم ماذا و ما هذا ليتعلَّم، يُزجر و يُلكم لضيق خُلُق أبويه، وإن جالسهما ليألف المعاشرة، و ينتفي عنه التوجّس يبعدانه كي لا يقف على أسرارهما، فيسترقها منه الجيران الخلطاء، فتنمى أعوان الظالمين

و ما أكثرهم، فإذا قويت رجلاه يُدفع به إلى خارج الباب، إلى مدرسة الألفة على القذارة، وتعلَّم صيغ الشتائم و السباب، فإذا عاش و نشأ وُضِعَ في مكتب أو عند ذي صنعة، فيكون أكبر القصد ربطه عن السّراح و المراح. فإذا بلغ الشباب، ربطه أولياؤه على وتد الزواج كي لا يفرّ من مشاكلتهم في شقاء الحياة، ليجني هو على نسله كما جنى عليه أبواه، ثم هو يتولى التضييق على نفسه بأطواق الجهل و قيود الخوف، و يتولى المستبدّون التضييق على عقله و لسانه و عمله و أمله. وهكذا يعيش الأسير في حين يكون نسمة في ضيق و ضغط، يهرول ما بين عتبة همٍّ و وادي غمٍّ، يودّع سقماً و يستقبل سقماً إلى أن يفوز بنعمة الموت مضيعاً دنياه مع آخرته، فيموت غير آسف و لا مأسوف عليه.

و ما أظلم من يؤاخذ الأسراء على عدم اعتنائهم بلوازم الحياة. فالنظافة مثلاً: لماذا يهتم بها الأسير؟ هل لأجل صحته وهو في مرضٍ مستمر؟ أم لأجل لذَّته وهو المتألم كيفما تقلَّب جسمه أو نظره؟ أم لأجل ذوق من يجالس أو يؤاكل، وهو من عفَّت نفسه صُحبة الحياة؟ ولا يظننَّ المطالع أن حالة أغنياء الأسراء هي أقل شرَّاً من هذا ؛ كلا، بل هم أشقى و أقل عافيةً، و أقصر عمراً من هذا، إذا نقصتهم بعض المنغّصات، تزيد فيهم مشاق التظاهر بالراحة والرفاه و العزة و المنعة، تظاهراً إن صحَّ قليله فكثيره الكاذب حملٌ ثقيل على عواتقهم كالسكران يتصاحى فيُبتلى بالصداع، أو كالعاهرة البائسة تتضاحك لترضي الزاني.

حياة الأسير تشبه حياة النائم المزعوج بالأحلام، فهي حياة لا روح فيها، حياة و ظيفتها تمثيل مندرسات الجسم فقط، و لا علاقة لها بحفظ

المزايا البشرية، وبناءً على هذا ؛ كان فاقد الحرية لا أنانية له لأنه ميتٌ بالنسبة لنفسه، حيٌّ بالنسبة لغيره ؛ كأنه لا شيء في ذاته، إنما هو شيء بالإضافة. و من كان وجوده في الوجود بهذه الصورة وهي الفناء في المستبدين، حقَّ له أن لا يشعر بوظيفة شخصية فضلاً عن وظيفة اجتماعية. و لولا أن ليس في الكون شيء غير تابع لنظام حتى الجماد، حتى فلتات الطبيعة و الصُّدف التي هي مسببات لأسباب نادرة، لحكمنا بأن معيشة الأسراء هي محض فوضى، لا شبه فوضى. على أن التدقيق العميق، يفيدنا بأن للأسراء، قوانين غريبة في مقاومة الفناء يصعب ضبطها و تعريفها، إنما الأسير يرضعها مع لبن أمه، ويتربى عليها، و قد يبدع فيها بسائق الحاجة، و يكون منهم الحاذق فيها علماً، الماهر في تطبيقها عملاً، هو الموفَّق في ميدان حرب الحياة مع الذل، كالهنود و اليهود. و العاجز عنها، إما جاهل هذا القانون أو العاجز فطرةً عن اتِّباعه كالعرب مثلاً، فلا يخرج عن كونه كرة يلعب بها صبيان الاستبداد، تارةً يضربون بها الأرض أو الحيطان، و أما إذا كان عجزه كما يقال عن عرق هاشمي، أي عن شيءٍ من كرامة نفس أو قوة إحساس أو جسارة جنان، فيكون كالحجارة تتكسَّر و لا تلين.

قوانين حياة الأسير هي مقتضيات الشؤون المحيطة به، التي تضطره لأن يطبق إحساساته عليها، ويدبّر نفسه على موجبها، وذلك نحو مقابلة التجبُّر عليه بالتذلل و التصاغر، وتعديل الشدة عليه بالتلاين و المطاوعة، وإعطاء المطلوب منه بعد قليلٍ من التمنُّع، ولو أن المطلوب هو ابنه لمجزرة الجندية أو ابنته لفراش شيخٍ شرير،و المطالبة بالحقوق بصفة استعطاف كأنه طالب صدقة، و كسب المعاش مع شكاية الحاجة، و حِفظ المال بإخفائه عن

الأعين، و التعامي عن زلاّت المستبدين، و التصامم عن سماع ما يُهان به، و التظاهر بفقد الحسّ أو تعطيله بالمخدرات القوية كالأفيون و الحشيش، و تعطيل العقل بالتّباله وستر العلم بالتجاهل، و الارتداء بالتدين و الرياء، و تعويد اللسان على الزّلاقة في عبائر التصاغر و التملّق، و عزو كلّ خير إلى فضل المستبدين حتى إذا كان الخير طبيعياً نحو مطر السماء، فعزوه إلى يُمن الحكام أو دعاء الكهنة. و يسند كلَّ شرّ ولو من نوع التسلُّط على الأعراض، على الاستحقاق من جانب الله، إلى غير ذلك من أحكام ذلك القانون، الذي رؤوس مسائله فقط تملّ القارئ فضلاً عن تفصيلاتها(١).

* * *

- ١٦-

إنَّ أخوف ما يخافه الأسير هو أن يظهر عليه أثر نعمة الله في الجسم أو المال، فتصيبه عين الجواسيس (و هذا أصل عقيدة إصابة العين)! أو أن يظهر له شأن في علمٍ أو جاهٍ أو نعمةٍ مهمة، فيسعى به حاسدوه إلى المستبدّ (وهذا أصل شرّ الحسد الذي يُتعوذ منه)! وقد يتحيّل الأسير على حفظ ماله الذي لا يمكنه إخفاؤه كالزوجة الجميلة، أو الدابة الثمينة، أو الدار الكبيرة، فيحميها بإسناد الشؤم، (وهذا أصل التشاؤم بالأقدام و النواصي و الأعتاب)

* * *

(١) عبد الرحمن الكواكبي – طبائع الاستبداد و مصارع الاستعباد – ص ٩٧.

- ١٧-

من غريب الأحوال أن الأُسراء يبغضون المستبدَّ، و لا يقوون على استعمالهم معه البأس الطبيعي الموجود في الإنسان إذا غضب، فيصرفون بأسهم في وجهة أخرى ظلماً: فيُعادون من بينهم فئةً مستضعفةً، أو الغرباء،أو يظلمون نساءهم و نحو ذلك. و مَثَلُهم في ذلك مثل الكلاب الأهلية، إذا أُريد منها الحراسة و الشراسة، فأصحابها يربطونها نهاراً و يطلقونها ليلاً فتصير شرسة عقورة، و بهذا التعليل تعلّل جسارة الأسراء أحياناً في محارباتهم، لا أنها جسارة عن شجاعة. وأحياناً تكون جسارة الأسراء عن التناهي في الجبانة أمام المستبدّ الذي يسوقهم إلى الموت، فيطيعونه انذعاراً كما تطيع الغنمة الذئب فتهرول بين يديه إلى حيث يأكلها.

* * *

- ١٨-

قد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة أن يحوّل ميلها الطبيعي من طلب الترقّي إلى التسفّل، بحيث لو دُفِعَت إلى الرفعة لأبت وتألمت كما يتألم الأجهر من النور، وإذا أُلزِمَت بالحرية تشقى، وربما تفنى كالبهائم الأهلية إذا أُطلق سراحها. عندئذٍ يصير الاستبداد كالعلق يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة، فلا ينفك عنها حتى تموت و يموت هو بموتها. وتوصف حركة الترقي و الانحطاط في الشؤون الحيوية للإنسان ؛ أنها من نوع الحركة الدودية، التي تحصل بالاندفاع والانقباض، وذلك أن الإنسان يولد وهو

أعجز حراكاً وإدراكاً من كل حيوان، ثم يأخذ في السير، تدفعه الرغائب النفسية والعقلية وتقبضه الموانع الطبيعية والمزاحمة. وهذا سرُّ أن الإنسان يتنابه الخير والشر، وهو سرُّ ما وُجِدَ في القرآن الكريم من ابتلاء الله الناس بالخير والشر، وهو معنى ما ورد في الأثر بأن الخير مربوطٌ بذيل الشر، والشرُّ مربوطٌ بذيل الخير،و هو المُراد من أقوال الحكماء نحو : على قدر النعمة تكون النقمة، على قدر الهمم تأتي العزائم، بين السعادة و الشقاء حربٌ سِجال، العاقل من يستفيد من مصيبته، و الكيِّس من يستفيد من مصيبته و مصيبة غيره، و الحكيم من يبتهج بالمصائب ليقطف منها الفوائد، ما كان في الحياة لذّة لو لم يتخللها آلام. فإن تقرر هذا فليعلم أيضاً أن سبيل الإنسان هو الرقيّ، ما دام جناحا الاندفاع و الانقباض فيه متوازيين كتوازن الإيجابية و السلبية في الكهرباء، و سبيله القهقرى إن غلبته الطبيعة أو المزاحمة.

ثم إن الاندفاع إذا غلب فيه العقل النفس، كانت الوجهة إلى الحكمة، و إن غلبت النفس العقل، كانت الوجهة إلى الزيغ.

أما الانقباض ؛ فالمعتدل منه هو السائق للعمل، و القوي منه مُهلكٌ للحركة، و الاستبداد المشؤوم الذي نبحث فيه هو قابض ضاغط مسكن، و المبتلون به هم المساكين. نعم : أسراء الاستبداد أحقُّ بوصف المساكين من عجزة الفقراء.

و لو ملك الفقهاء حرية النظر لخرجوا من الاختلاف في تعريف المساكين الذين جعل الله لهم نصيباً من الزكاة فقالوا : هم عبيد الاستبداد، و لَجعلوا كفَّارات فكّ الرقاب تشمل هذا الرق الأكبر.

* * *

- ١٩ -

أما الأسير – و لا أُحزن المطالع بوصف حالته – فأكتفي بالقول : إنه لا يملك و لا نفسه، و غير أمينٍ حتى على عظامه في رمسه، إذا وقع نظره على المستبد أو أحد من جماعته على كثرتهم يتعوذ بالله، وإذا مرَّ من قرب إحدى دوائر حكومته أسرع و هو يكرر قوله : ((حمايتك يارب، إنَّ هذا الدار، بئس الدار، هي كالمجزرة كلُّ من فيها إما ذابح أو مذبوح. إن هذه الدار كالكنيف لا يدخله إلا المضطر))[١].

* * *

- ٢٠ -

يقابل المجد، من حيث مبتناه، التمجد.و ماهو التمجد؟ وماذا يكون التمجّد؟ التمجّد لفظٌ هائل المعنى.

التمجد خاص بالإدارات المستبدة، وهو القربى من المستبدة، وهو القربى من المستبد بالفعل كالأعوان والعمال، أو بالقوة كالملقَّبين بنحو دوق وبارون، والمخاطبين بنحو ربّ العزة وربّ الصولة،أو الموسومين بالنياشين، أو المطوَّقين بالحمائل، وبتعريفٍ آخر، التمجّد هو أن ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف المساواة في الإنسانية.

وبوصفٍ أجلى : هو أن يتقلَّد الرجل سيفاً من قِبل الجبارين يبرهن به على أنه جلاد في دولة الاستبداد، أو يعلّق على صدره وساماً مشعراً بما

(١) عبد الرحمن الكواكبي – طبائع الاستبداد – و مصارع الاستعباد – ص ١٢٣ .

وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان، أو يتزين بسيور مزركشة تنبئ بأنه صار مخنثاً أقرب إلى النساء منه إلى الرجال، وبعبارة أوضح وأخصر، هو أن يصير الانسان مستبداً صغيراً في كنف المستبد الأعظم.

قلتُ: إنَّ التجمد خاصٌّ بالإدارات الاستبدادية، وذلك لأن الحكومة الحرة التي تمثل عواطف الأمة تأبى كل الإباء إخلال التساوي بين الأفراد إلا لفضلٍ حقيقي، فلا ترفع قدر أحدٍ منها إلا رفعاً صورياً أثناء قيامه في خدمتها، أي الخدمة العمومية، وذلك تشويقاً له على التفاني في الخدمة، كما أنها لا تميز أحداً منها بوسام أو تشرّفه بلقبٍ إلا ما كان علمياً أو ذكرى لخدمة مهمة وفقه الله إليها. وبمثل هذا يرفع الله الناس بعضهم فوق بعض درجات في القلوب لا في الحقوق.

وهذا لقب اللوردية مثلاً عند الإنكليز هو من بقايا عهد الاستبداد، ومع ذلك لا يناله عندهم غالباً إلا من يخدم أمته خدمة عظيمة، ويكون من حيث أخلاقه وثروته أهلاً لأن يخدمها خدمات مهمة غيرها، ومن المقرر أن لا اعتبار للورد في نظر الأمة إلا إذا كان مؤسساً أو وارثاً، أو كانت الأمة تقرأ في جبهته سطراً محرراً بقلم الوطنية وبمداد الشهامة ممضيّ بدمه يقسم فيه بشرفه أنه ضمين بثروته وحياته ناموس الأمة، أي قانونها الأساسي، حفيظ على روحها، أي حريتها.

التمجد لا يكاد يوجد له أثر في الأمم القديمة إلا في دعوى الألوهية و ما معناها من نفع الناس بالأنفاس، أو في دعوى النجابة بالنسب التي يهول بها الأصلاء نسل الملوك والأمراء، وإنما نشأ التمجّد بالألقاب والشارات في القرون الوسطى، وراج سوقه في القرون

الأخيرة، ثم قامت فتاة الحرية تتغنى بالمساواة وتغسل أدرانه على حسب قوتها وطاقتها، ولم تبلغ غايتها إلى الآن في غير أمريكا.

المتمجدون يريدون أن يخدعوا العامة، وما يخدعون غير نسائهم اللاتي يتفحفحن بين عجائز الحي بأنهم كبار العقول، كبار النفوس، أحرار في شؤونهم لا يُزاح لهم نقاب، ولا تُصفع منهم رقاب، فيحوجهم هذا المظهر الكاذب لتحمُّل الإساءات والإهانات التي تقع عليهم من قبل المستبد، بل تحوجهم للحرص على كتمها بل على إظهار عكسها، بل على مقاومة من يدَّعي خلافها، بل على تغليط أفكار الناس في حق المستبد و إبعادهم عن اعتقاد أن من شأنه الظلم.

وهكذا يكون المتمجدين أعداء للعدل أنصاراً للجور، لادين ولا وجدان ولا شرف ولا رحمة، وهذا ما يقصده المستبد من إيجادهم والإكثار منهم ليتمكن بواسطتهم من أن يغرر الأمة على إضرار نفسها تحت اسم منفعتها، فيسوقها مثلا لحرب اقتضاها محض التجبُّر والعدوان على الجيران، فيوهمها أنه يريد نصرة الدين، أو يسرف بالملايين من أموال الأمة في ملذاته وتأييد استبداده باسم حفظ شرف الأمة و أبهة المملكة، أو يستخدم الأمة في التنكيل بأعداء ظلمه باسم أنهم أعداء لها، أو يتصرَّف في حقوق المملكة و الأمة كما يشاؤه هواه باسم أن ذلك من مقتضى الحكمة والسياسة.

الكواكبي بقلم
عباس محمود العقاد

(كما قرأه العقاد)

في«سير و تراجم» العقاد معلّم العقل العربي في العصر الحديث، حظي رجل التنوير عبد الرحمن الكواكبي بعناية خاصة، فأفرد له كتاباً كاملاً. يستعرض حياته ومدينته و أسرته ومصنفاته، ويحدد قيمته التاريخية والفكرية....

وعند العودة إلى هذا الكتاب وجدت أن ما كتبه عباس محمود العقاد يشكلّ وثيقة تنصف الكواكبي الذي أهمله كثير من الدارسين المصريين والعرب، لذلك اخترت ما قاله في كتابيه«أم القرى» و«طبائع الاستبداد» وما يقوله العقاد لا يصل إلى مضمونه وعمقه ناقد آخر، لذلك أردت أن أضعه بين أيدي القراء لعلّ شيئاً من الإنصاف يصل إلى روح الكواكبي الثائر المتنور الذي أنار فكرة، وضيّعه قومه، وألصق به الباحثون ما ليس فيه.

أم القرى

أول كتاب وضعه الكواكبي كما تقدم في التمهيد السابق، فهو باكورة أعماله القلمية وفاتحة اشتغاله بالتأليف.

أما من ناحية التفكير والتحضير فلا يحسب الكتاب من أعمال البواكير، لأنه نتيجة ناضجة لدراسة طويلة وصل منها إلى نهاية الرأي في أحوال العالم الإسلامي وأسباب ضعفه وبواعث الأمل في صلاحه وتقدمه، فهو محصول حياة فكرية وقفها على هذه الدراسة في جوهرها، ولم تكن دراساته الأخرى إلاّ شعاباً متفرعة عليها.

«وجمعية أم القرى» اسم أطلقه المؤلف على مؤتمر عام تخيَّل انعقاده في مكة المكرمة وجمع فيه مندوبين ينوبون عن أمم العالم الإسلامي في المشرق والمغرب يمثلون الهند والصين والأفغان والعراق والحجاز والشام ونجد واليمن ومصر وتونس ومراكش وغيرها من الأقاليم المشتركة بين هذه الأقطار، وألقى على لسان كل منهم خطاباً يشرح حالة المسلمين كما اختبرها من شؤون بلده ومما يعلمه عن شؤون سائر البلدان الإسلامية، واجتهد في إتقان صورة المؤتمر السري بما له من

المحاضر المسجلة والرموز المصطلح عليها و علامات الأرقام التي يتفاهم عليها الأعضاء، لأنه أراد أن يتمم الصورة شكلاً على ما يظهر، أو أراد أن يوقع في روع القارئ ما يبعث عنده الثقة باجتماع العزم على العمل وقيام المؤتمرين على تنفيذه، إلاّ أن الثابت من رواية أصدقائه وآله أنه ألف الكتاب قبل رحلته إلى مصر وإلى الحجاز، وتحدث هو عن هذا الكتاب إلى صديقه السيد محمد رشيد رضا – صاحب المنار – فلم يزد على أن قال إن للجمعية أصلاً وتوسَّع في سجله، وعاوده غير مرة بالتنقيح والحذف والزيادة.

وفي وسعنا أن نفهم هذا«الأصل» على سبيل الظن من تصفح ألقاب المندوبين في الكتاب. فلابد أن يكون المؤلف قد التقى في بلده بأناس من فضلاء المسلمين الذين يترددون عليه في طريق الحج فذاكرهم في مسائل الدين ومصالح المسلمين وسمع منهم وأسمعهم ما عنده من الآراء والمعلومات في هذه الشؤون، ولا حاجة إلى التوسع في قراءة السجلات للتيقن من هذه الحقيقة البديهية، فإن لمحة عابرة إلى الألقاب التي اختارها للمندوبين تشعر القارئ بمعرفة حسنة للأمم التي نسبهم إليها، يجوز أن تعرف بالسماع والاطلاع، ولكن لا يجوز أن تكون كلها سماعاً واطلاعاً مع إمكان المقابلة في حلب بينه وبين الوافدين إليها من عامة الأقطار الإسلامية لمختلف المقاصد والوجهات، ومع عناية المؤلف باستيعاب الأخبار والآراء في موضوع كتابه وقوله لصديقه إن لها أصلاً توسَّع فيه.

أنظر مثلا الى ألقاب الأستاذ المكي والصاحب الهندي والفاضل الشامي والمولى الرومي والمجتهد التبريزي والرياضي الكردي والعالم النجدي والمحدث اليمني والعلاَّمة المصري والخطيب القازاني، وسائر الألقاب وعناوين الخطاب التي تخللت المساجلات والخطب على ألسنة هؤلاء الأعضاء

إن هذه الألقاب لم توضع جزافاً ولم يتميز بعضها من بعض إلاّ لأسباب تتعلق بأفراد المندوبين و لا ينظر فيها إلى خصائص شعوبهم أو إلى السمات العامة التي تبرزهم بين جملة المسلمين، فإذا جاوزنا الألقاب إلى السجلات وما وعته من الآراء و الأوصاف و الوقائع و مناحي التفكير وضح لنا أن المؤلف قد صدر فيها عن علم واسع بأحوال الشعوب الإسلامية وأحوال السادة المتخصصين فيها للإمامة العلمية والفتوى الدينية، ويجوز كما أسلفنا أن يجتمع هذا العلم للمؤلف بالاطلاع و السماع على الألسنة، ولكن البعيد عن الظن الذي لا يجوز في حكم العرف و العادة أن يصل إلى حلب قصّادها والعابرون بها من أرجاء العالم الإسلامي ولا يتفق بينهم وبين الكواكبي لقاء مقصود أو غير مقصود، يتطرق فيه الكلام إلى حديث كحديث أم القرى كما سجلته محاضر الكتاب.

وغير بعيد أن يكون«الكواكبي» قد سمع بعض هذه الآراء واطلع على بعضها ووصل إليها وإلى غيرها بإطالة التأمل وإنعام النظر وتقليب المسائل على شتى الوجوه، غير أن هذه الآراء لا تحتوي الكتاب ولا تغني عنه، فإن الكواكبي لم يعرضها عرض الحكاية ولا عرض النقل والرواية،

بل كان عمله فيها عمل «الغربلة» والتحليل والنيابة عن المناقشة والموازنة و الأخذ والرد الذي لا يتأتى في غير المجتمعات المشهودة.

فكل سبب من أسباب الأعضاء المتفرقين يعللون به ضعف المسلمين ينتهي إلى أن يكون سبباً من ناحية ونتيجة من ناحية أخرى، وكل عرض من أعراض الجمود يجري به الدور والتسلسل على هذه الوتيرة، إلى أن تنتهي كلها إلى سبب الأسباب في عقيدة الكواكبي كما نفهمها في ديدنه وهجيراه في التفكير، وليس هناك سبب لجميع الأسباب غير الحكومة السيئة أو غير الاستبداد.

فلماذا يضعف المسلمون؟

يضعفون لأنهم أهملوا آداب الدين التي نهضوا بها في صدر الإسلام.

ولماذا أهملوا آداب الدين؟

لأنهم جهلوا لبابه وأخذوا منه بالقشور؟

ولماذا جهلوها؟

لأنهم فقدوا الهمة وقنعوا بالضعة واستكانوا إلى الحور والتسليم.

ولك أن تتابع حلقات السلسلة عكساً كما نتابعها طرداً، فتقول إنهم فقدوا الهمة لأنهم جهلوا، وإنهم جهلوا لأنهم أهملوا آداب الدين، وإنهم أهملوا آداب الدين لأنهم ضعفوا.

فكل علّة من هذه العلل هي مقدمة من جهة ونتيجة من الجهة الأخرى، إلا الحكومة السيئة في تعليل الكواكبي فإنها تبطل الدور و

التسلسل لأنها ملتقى الأسباب والنتائج في كل عرض من الأعراض. فالاستبداد جهل وضعف وإهمال وآفات تعرض للرعاة ثم تعرض منهم للرعية فتجري دواليك في حلقة مفرغة لا تنتهي أبدا مع بقاء الاستبداد، ومن ثم يصح أن يقال إن الفكرة في أم القرى هي الفكرة في طبائع الاستبداد، وإن طبائع الاستبداد لا يحتوي شيئا لا يكتبه من كتب أم القرى قبل التنقيح أو بعد التنقيح.

ويقول الدكتور سامي الدهان في ترجمته للكواكبي في سلسلة نوابغ الفكر العربي إن كتاب

أم القرى: «صدر في حياته منقحاً بقلم السيد رشيد رضا أو بقلم الشيخ محمد عبده كما قال الأب شيخو» ويشير الدكتور سامي الدهان بهذا إلى قول الأب شيخو في تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين عند كلامه عن أم القرى إنه «نظر فيه الشيخ محمد عبده».

ثم يعقب الدكتور الدهان قائلاً: «وكل الذي نستطيع أن نقول في أسلوب كتابته أنه قريب من أسلوب هذين الرجلين وهو أسلوب الفحول لذلك العصر».

ولا نرى ما يراه الدكتور الدهان من التشابه بين أسلوب الكواكبي و أسلوب الاستاذ الإمام أو تلميذه السيد رشيد. فإن في الكتاب من مآخذ النحو والصرف والتركيب ما يتحرج منه السيد رشيد غاية التحرج ولا يسكت عن نقده إذا عرض عليه، كما صنع مراراً في تعقيبه على الرسائل

والمصنفات التي يقرأها لأصدقائه وزملائه، والأستاذ الإمام يكتب بقلمه على نهج غير نهج السيد رشيد كما يظهر من أسلوبه في«رسالة التوحيد» وفي «الإسلام والنصرانية» وفي المقالات الأدبية، ويقع الالتباس أحيانا بين أسلوب الإمام وأسلوب تلميذه لأن قراء المنار كانوا يحسبون أن تفسير القرآن الذي كان ينشر فيه مكتوب بقلم الشيخ محمد عبده وهو في الحقيقة ملخص أو مقتبس من دروسه في الرواق العباسي بقلم صاحب المنار ومن هنا يظن أن الأسلوبين على شبه قريب وهما مختلفان مع اتفاقهما في التحرز من المآخذ اللغوية واجتناب الصيغ المولدة والصيغ التركية.

ولا يمتنع عندنا أن يكون الشيخ محمد عبده أو السيد رشيد قد نظرا في الكتاب وأبديا عليه بعض الملاحظات وأخذ المؤلف بها أبدياه. بل نحن نجزم بمراجعتهما لآراء الكتاب ونصيحتهما بحذف طائفة من العبارات السياسية التي وردت فيه. وتثبت هذه المراجعة من المقابلة بين النسخة التي طبعها السيد رشيد في مطبعة المنار والنسخ التي لم يشرف على طبعها. فقد حذفت منها العبارات التي اشتدت فيها الحملة على الدولة العثمانية، واتبع السيد رشيد في حذفها رأي الأستاذ الإمام فيما وجهه إليه من النصائح غير مرة. إذ قال السيد رشيد وهو يعد وجوه النقد التي كان أستاذه يصارحه بها : إنها تشمل«الخوض في سياسة الدولة العثمانية في بعض الأحيان».... قال :«وهذا ماكنت أكرهه أنا أيضاً فيعرض لي من الضرورة ما يحملني عليه. وجل عملي المهم منها كان سرياً. وقد أشرت إلى ذلك في فاتحة المجلد الثاني عشر من المنار سنة ١٣٢٧ .... ولم ننل منها ما نهواه إلا بعد أن اصطفاه الله..»

والمشهور عن الأستاذ الإمام أنه ابتلى بالمتاعب المرهقة من آفات السياسة حتى ملها واستعاذ بالله منها في كلمته المعروفة «أعوذ بالله من السياسة.... ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس» وطفق ينصح لمريديه باجتنابها لتمحيص القول في المبادئ والأصول التي يتجرد الناس من أهوائهم ومآربهم عند نظرها ولا يصدون عنها ذهاباً مع وساوس العصبية ونوازع المنفعة والنفاق. وقد كان الأستاذ الإمام يبيح النقد ويأبى الحملة على الدولة العثمانية في محنها، وأحرى به أن يأبى الإغراق في هذا النقد على طريقة الكواكبي كلما استثارته حماسة الدعوة فشدد النكير وبالغ في الاتهام، ومن دلائل هذه المبالغة - ولا ريب — أنه استطاع أن يكتب «أم القرى» و«طبائع الاستبداد» ويخرج بهما من حلب ويحملهما في طريقه ولا يحال بينه وبين ذلك كما حيل بين أصحاب الأقلام و بين أمثال هذه الكتابة في الأقطار الأوربية لزمانه، وكما يحال بينه وبين أمثالها في بلاد الدول المستبدة التي تخضع لحكوماتها المطلقة.

ولا نعتقد أن مراجعة الأستاذ الإمام أو صاحب المنار تجاوزت هذه الملاحظة إلى غيرها من أفكار المؤلف وآرائه، ومن تجاربه وتعليلاته، فإن مادته من هذه الأفكار و الآراء ومن هذه التجارب والتعليلات أوفر جداً من أن تحتاج إلى مدد يُضاف إليها، وحسبه نموذج واحد يلمسه بيديه و لا يقدر على الفكاك منه ليقيس عليه كل ما أحصاه في أم القرى من فساد السلطة الدينية والسلطة السياسية في عصور الاستبداد أو عصور التخلف والجمود. حسبه نموذج «أبي الهدى الصّيّادي» الذي انتزع نقابة الأشراف من بيت

الكواكبي بغير حق من حقوق النسب أو الفضل أو الكفاية، ليضعه أمامه وينقل عنه آفات السلطتين ومواطن الحاجة إلى علاج هذه الآفات و المقابلة فيها بين الداء و الدواء. لقد كان الكواكبي ينعى على جهلاء المسلمين استغاثتهم بأصحاب الأحضر و لا يفرق بينها و بين الشرك بالله ويضرب المثل على ذلك بقولهم :

عبد القادر يا جيلاني يا ذا الفضل و الإحسان
صرت في خطب شديد من إحسانك لا تنساني

وقولهم:

رفاعي لا تضيعني أنا المحسوب أنا المنسوب

وكان هؤلاء الجهلاء يستمدون دعاءهم من كتاب «قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر» الذي يؤلفه الصّيّادي أو يأمر بتأليفه وبنشره، وينشر معه التصانيف من قبيله عن«فرحة الأحباب في أخبار الأربعة الأقطاب» و«الجوهر الشفاف في طبقات السادة الأشراف» و«وذخيرة المعاد في ذكر السادة بني الصياد» إلى غيرها من كتب المنثور و المنظوم في أشباه هذه الترهات.

وكان الكواكبي ينهى على العصر أن يرتفع بالجهلاء إلى مساند الأئمة العلماء، ولا بضاعة لهم من العلم والورع إلا بضاعة الحيلة والدسيسة وصناعة الزلفى و التقرب إلى السلاطين و الأمراء، وقد ينقلون مناصبهم بالوراثة إلى ذريتهم فيوصفون في المهد بصفات الجهابذة و الأولياء. وقد كان

الصّيادي ينال غاية ما ينال من ألقاب العلم و الشرف ويتشفع عند ولاة الأمر لمن يطمع في نيلها وهو من الجهل بالكناية بحيث يستكتب «المحاسيب» ما ينسبونه إليه من تلك التصانيف في كرامات الأقطاب.

قال الأستاذ خير الدين الزركلي صاحب الأعلام - وهو خبير بأصحاب السير والتراجم من أبناء الجيل القريب -: إن الصيّادي «صنّف كتباً كثيرة أشك في نسبتها إليه، فلعله كان يشير بالبحث أو يملي جانباً منه فيكتبه له أحد العلماء ممن كانوا لا يفارقون مجلسه، وكانت له الكلمة العليا عند عبد الحميد في نصب القضاة و المفتين...وله شعر ربما كان بعضه أو كثير منه لغيره.؟»

نقول: ومن هذا الشعر ما بعث به إلى الأستاذ الإمام يثني فيه على رسالة التوحيد:

نعم فيها اختيارات ونسج ... دقيق فيه درب للطراد
وغايتكم بما قد صين فيها ... منزهة بحكم الاعتقاد
فدم نساج در هدىً ثمين ... مفيد للعباد وللبلاد

وقائل هذا الشعر ومن يستعيره من نظم غيره سواء، و آية الجهل فيه أن يحسبه ناظمه أو طالب نظمه جديراً بالإهداء إلى شارح نهج البلاغة وراعي الشعراء و الأدباء.

والكواكبي يعلم أن أمراء المسلمين تأخروا و أخروا معهم رعاياهم لأنهم أحاطوا عروشهم بشراذم من الحاشية المتملقين واستمعوا إلى مشورتهم في اختيار الولاة و الرؤساء من أذنابهم

وأقربائهم وإقصاء المرشحين للولاية والرئاسة من الكفاة المخلصين والأمناء العاملين.

فإن لم يكن قد علم ذلك من مشاهداته ومطالعاته فهو مدفوع إلى علمه بما يبصره أمامه من ذلك المثل البارز ولو كان وحيداً في زمنه، وما هو بالوحيد.

فالصّيّادي كان يتحكم في مناصب القضاة والمفتين كما قال صاحب الأعلام وكان يتحكم في مناصب الولاة و الرؤساء فيسندها إلى أصهاره و أقربائه ويذهب هؤلاء إلى مراكزهم وهم يعلمون ما تفرضه الوظيفة عليهم و أوله تعظيم شأن المحسن إليهم والتشهير بمن ينافسهم و ينافسونه من جلة العلماء ودعاة الإصلاح.

قال صاحب المنار : إن أبا الهدى سعى في إسناد ولاية طرابلس إلى أحد أصهاره فأصبح الناس يحجمون عن ذكر اسم جمال الدين والثناء عليه في مجلسه ولم يقنع أبو الهدى بمصادرة هذا المصلح الكبير في حياته في البلاد التي يتناولها نفوذه من ولايات الدولة العثمانية، فكتب إلى صاحب المنار بعد وفاة جمال الدين كتاباً (في التاسع والعشرين من رجب سنة ١٣١٦) – لعل الكواكبي قد اطلع عليه – عتب فيه عليه لثنائه على جمال الدين فقال :«إني أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفقة، وقد تدرجت به إلى الحسينية التي كان يزعمها زوراً. وقد ثبت في دوائر الدولة رسميًا أنه مازندراني من أجلاف الشيعة، وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية»

وكان هذا ديدن الصيادي في إنكار الحسب على غيره والاستئثار به لنفسه ولو لم يكن صاحب الحسب من منافسيه على نقابة الأشراف أو حراسة الأوقاف....!

وإنما يقطع عليه السبيل ليخمله ويحبط مسعاه ولو كان فيه خير عميم للدولة وسائر المسلمين، وكذلك كان تدبيره لإحباط سعي جمال الدين في التقريب بين الدولة التركية والدولة الفارسية لتتفق السياسة بينهما على محاربة الاحتكار ومقاطعة الدول المستعمرة التي تعتدي على إحداهما، تخويفاً لها من عواقب المقاطعة على مطامعها الاقتصادية.

فإذا جاز أن تخفى على الكواكبي أسباب الفشل الذي مني به المسلمون فيما وعاه التاريخ أو أحاطت به التجربة والمحادثة، فليس من الجائز أن تفوته أسباب الفشل التي تقتحم عليه داره وتسلبه قراره، ويبتليه بها الصّيّادي في شرفه ونسبه وعمله واجتهاده، ولا يرضيه منه إلا أن يعترف له بالشرف الذي اغتصبه منه ويجزيه بالتأييد والتمكين على محاربته إياه.

غير أن الكواكبي لم تعوزه الأمثلة غير هذا المثل في بلدته وفي عاصمة الدولة، فكل من تولى الحكم في حلب كان مثلاً كهذا المثل في كشفه عن المساوئ وهدايته إلى مواطن الإصلاح، و وسائل الكواكبي إلى كشف الحقيقة غير قليلة في نطاق حياته ومجال معيشته، إذا صرفنا النظر عن مطالعاته و محادثاته. إذ هي وسائل الرجل المتصل بوظائف القضاء والإدارة ومراكز التجارة وشركات الاحتكار، وهي إلى جانب ذلك

وسائل الرجل الذي يحمل تكاليف الوجاهة ويقيمه الناس مقام المسؤول عن مرافق البلدة وخفايا الكسب والسعي فيها من مباح ومحظور.

إن المباحث في «أم القرى» تجربة شخصية لعبد الرحمن الكواكبي لا تعوزها الزيادة من تجربة غيرها، فليس في الكتاب فكرة يعز عليه في ذكائه وبحثه أن يستوحيها من مكانه وزمانه،

ولا غضاضة على مثله أن يسترشد بعد ذلك بنصائح ذوي الرأي فيما يذاع أو لا يذاع، وفيما يحسن نشره لحينه أو يحسن إرجاؤه إلى حين.

وعلى الجملة يصح عندنا أن نفهم أن جوهر الكتاب وهو البحث عن علل الأمم الإسلامية وعوامل شفائها عمل خالص للكواكبي فرغ منه في بلدته قبل هجرته منها.

أما موضع تنقيحه والإضافة إليه والحذف منه فهو شكل الكتاب، وما كتبه فيه أخيراً عن شكل «الجمعية» كما تخيلها وكما اعتقد بعد رحلاته في العالم الإسلامي أنه أقرب إلى تنفيذها، وقد نشر الكتاب في طبعات متلاحقة فأعيد فيه ما حذف منه، فلا التباس اليوم بين عمل الكواكبي في «أم القرى» وبين عمل الناصحين فيما أبقاه وفيما حذفه منه إلى حين..

طبائع الاستبداد

هذا الكتاب الذي يعد آية الكواكبي، يتألف من سلسلة مقالات نشرها لأول مرة في صحيفة المؤيد وتناول في كل مقالة منها عارضاً من عوارض الاستبداد التي يشاهد أثرها في أحوال الأمم والأفراد، وانتهى الكتاب وقد بحث فيه جملة العوارض الاجتماعية التي تصاحب الاستبداد في أحوال الدين والعلم والمجد والثروة والأخلاق والتربية والتقدم، ومهد للمقالات بتعريف الاستبداد ثم عقب عليها بوسائل الخلاص منه والغلبة عليه.

ومقالات الكتاب جميعاً تنبئ عن دراسة وافية للعوارض التي شرحها أو أجمل القول فيها، وتدل على تأمل طويل في موضوعاتها يستفاد من النظر والتجربة كما يستفاد من الاطلاع و المراجعة، ولهذا خطر للأستاذ أحمد أمين مترجم زعماء الإصلاح أنها نتيجة دراسته بعد أن«ساح في سواحل افريقية الشرقية وسواحل آسية الغربية ودخل بلاد العرب وجال فيها واجتمع برؤساء قبائلها ونزل بالهند وعرف حالها، وفي كل بلد ينزلها يدرس حالتها الاجتماعية والاقتصادية وحالتها الزراعية ونوع تربتها وما فيها من معادن ونحو ذلك، دراسة دقيقة عميقة، ونزل مصر وأقام بها، وكان في نيته رحلة

أخرى إلى بلاد المغرب يتم فيها دراسته ولكنه عاجلته منيته.... نشر نتيجة دراسته في مقالات كتبت في المجلات والجرائد ثم جمعت في كتابين اسم أحدهما –طبائع الاستبداد –والآخر –أم القرى».

والواقع أن الكواكبي درس موضوعات الكتابين قبل رحلته المطولة في البلاد الشرقية وقبل هجرته من حلب إلى القاهرة، وقد عني حفيده الدكتور عبد الرحمن الكواكبي بالتنبيه إلى ذلك في مقدمة الطبعة الأخيرة ن كتاب أم القرى التي طبعت هذه السنة (١٩٥٩) فقال إنه «لابد في هذه المناسبة من الإشارة إلى حقيقة تاريخية تلقي ضوءاً على موضوع هذا الكتاب، وهي أن جدي رحمه الله ألف أم القرى و طبائع الاستبداد قبل هجرته إلى مصر، وكان عمي الدكتور أسعد الكواكبي يتولى تبييض أم القرى له في حلب، كما أخبرني أيضاً عالِم حلب الثقة المرحوم الشيخ راغب الطباخ أن المؤلف أطلعه عليه قبل سفره إلى مصر، ولما كان السيد الفراتي لم يغادر حلب خلال مقام -ه فيها إلا إلى استانبول ولم يقم بجولاته إلى العالم الإسلامي إلا بعد رحيله إلى مصر، فإن المؤتمر الذي عقد في مكة، ويدور عليه موضوع الكتاب، إنما هو مؤتمر تخيله المؤلف ليعرض فيه آراءه..».

ويطابق هذا القول مارواه الأستاذ الغزي للأستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة الحديث كما نشره في مجلة الكتاب«سنة ١٩٤٧» إذ يقول:

«.. وقبل سفره بيوم واحد زارني في منزلي يودعني و أخبرني أنه عازم في غده على السفر إلى استانبول لتبديل نيابته، أي نيابة قضاء راشيا –

وكنت عالماً بكتابه (جمعية أم القرى) وقد شعرت منه العزم على طبعه فوقع في نفسي أنه سيعرج على مصر لطبعه ونشره،إذ لا يمكنه أن يطبعه في غيرها، وحذرته من ذلك وقلت له: إياك يا أخي والسفر إلى مصر. فإنك متى دخلتها تعذَّر عليك الرجوع إلى وطنك، لأنك تعد في الحال من الطائفة المعروفة باسم - جوز تورك - ولا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة، لما اشتُهرت وعُرفت به من شدة المعارضة وانتقاد الأحوال الحاضرة. فقال: لم أعزم إلا على السفر إلى استانبول للغرض الذي ذكرته لك، وقد كتم سر سفره حتى عن أعز أصدقائه، ثم ودَّعني ومضى، وأنا أسأل الله تعالى أن يرعاه بعين رعايته و أن يجعل التوفيق رائده والنجاح مرشده وقائده، وكانت مبارحته حلب في أوائل سنة ١٣١٦ هجرية (هكذا)... وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوماً لم نشعر إلا وصدى مقالاته في صحف مصر، وأخذت جريدة المؤيد تنشر تفرقة كتاب طبائع الاستبداد الذي لم يطلعنا عليه مطلقاً بخلاف كتاب جمعية أم القرى. فقد أطلعنا عليه مراراً ثم إنه طبع الكتابين المذكورين وقام لهما في المابين السلطاني ضجة عظيمة وصدرت إرادة السلطان بمنع دخولهما إلى الممالك العثمانية... بيد أنهما رغماً عن ذلك كله وصلا إلى حلب على صورة خفية وقرأناهما في سمرنا المرة بعد المرة».

فالدراسة التي توفر عليها في الكتابين كانت من مطالعاته وتجاربه ومشاهداته في حلب والآستانة وغيرهما من بلاد الدولة العثمانية، وهي كافية لمن كان في مثل فطنته للإحاطة بظواهر الاستبداد وخوافيه والعلم بأثر الاستبداد في أحوال الأمم الكثيرة التي كان من اليسير عليه أن

يتصل بها بين موطنه وعاصمة السلطنة الكبرى، وليس عليه أن يبحث في غير تجربة واحدة ليعلم كل ما أثبته في الكتاب من أثر الاستبداد في الدين والعلم والمجد والأخلاق والثروة وعوامل التقدم، وتلك هي تجربته لمساعي «أبي الهدى الصيادي» ووسائله في الاستئثار بنقابة الأشراف ومنصب شيخ المشايخ في الدولة، مع ذلك الجاه الذي كان يعينه على اللعب بمظاهر المجد ومداورات السياسة كما يشاء.

وقد صادف الكواكبي التوفيق في موعد وصوله إلى القاهرة، فإنه وصل إليها وهي في فترة من فترات الجفاء المتداولة بين «يلدز» و«عابدين» ولولا ذلك لتعذَّر نشر المقالات في صحيفة المؤيد لسان القصر الخديوي وهو يتحفظ غاية التحفظ في الإشارة إلى الدولة بكلمة تؤيد وشاية الجواسيس فيما اتهموا به الأسرة الخديوية غير مرة من التطلع إلى الخلافة والعمل على إثارة الفتنة في البلاد العربية، ولكن «المؤيد» يومئذ كان في حل من ذلك التحفُّظ الشديد، ليعرب عن استياء الخديو من خطة الدولة و يومئ إلى سادة «يلدز» بالمساومة على مواضع الخلاف.

ومع هذا لم يستغنِ الكاتب عن بعض المصانعة عند عابدين وحاشيتها لتهوين الأمر على الصحيفة وتيسير مقامه في البيئة التي اختارها ولم يكن له يد من اختيارها، فقد حرص على هذه المصانعة إلى أن فرغ من نشر المقالات وأظهرها في أول طبعة فقال في تقديمها: «أقول وأنا المضطر للاكتتام حسب الزمان، الراجي اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عمن قال، إنني في سنة ثماني عشر وثلثمائة وألف وجدت زائراً في مصر على عهد عزيزها ومعزها حضرة سمي عم النبي العباس الثاني الناشر لواء الحرية

على أكناف ملكه، فنشرت في بعض الصحف الغراء أبحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستبداد، منها ما درسته ومنها ما اقتبسته، غير قاصد بها ظالماً بعينه ولا حكومة مخصصة. إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه، فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار....

ولقد كان في وسع الكواكبي أن ينشر مقالاته في صحيفة من صحف الاحتلال التي كانت تجاهر بمحاربة السيادة العثمانية خدمة للسيادة البريطانية، ولكنه لو فعل ذلك لخرج عن صفته الإصلاحية الإسلامية، وعرض نفسه لشبهات الدعاية الأجنبية، ووطن العزم على القطيعة الدائمة بينه وبين البلاد المشمولة بسيادة الدولة والمطالبة بالولاء لها في جوازاتها وشروط الإقامة فيها والرحلة منها وإليها، ويظهر من كتمان اسمه وتوقيعه بالحرف الأول منه أنه لم يكن قد وطَّن العزم على ذلك عند وصوله إلى القاهرة، وأنه أراد أن يختبر الحالة فيما حوله قبل أن يقطع بالعزم الأخير على المسلك الذي لا رجعة فيه.

* * *

والمرجح عندنا أنه طوى كتاب طبائع الاستبداد في حلب ولم يطلع عليه أصدقاءه لسبب غير التحرج من خطره والحذر من إفشاء خبره وإعنات أصحابه بكتمان سره. فإنه أطلعهم على كتاب أم القرى وفيه من المحذورات مالا يقل عن أخطر المحذورات في كتاب طبائع الاستبداد. فقد صرح فيه بالدعوة إلى الخلافة العربية وأنكر الخلافة على بني عثمان ورماهم

بالتواطؤ مع الدول على التنكيل بمسلمي الأندلس، ومسلمي الإمارات الأسيوية، وقد يرد على الخاطر أنه أغفل هذه المسائل في النسخة المخطوطة واكتفى فيها بالتلميح دون التصريح وبالإشارة دون الإسهاب، ولكن الكتاب يشتمل بعد إغفال هذه المسائل على مآخذ منكرة أخذها على الأمراء المستبدين وعزا فيها تخلف المسلمين إلى مساوئهم وسوء سياستهم وتدليسهم على رعاياهم وتقريبهم للمفسدين والدجالين من الولاة ورجال الدين، ولم يقل عن المستبدين كلمة في طبائع الاستبداد إلا كان لها نظير في معناها ومرماها من فصول أم القرى على ألسنة المسلمين الترك والعثمانيين، وهو تصريح بالحكومة المقصودة لم يرد لها نظير في طبائع الاستبداد، إذ يتيح له عموم القول أن يعلن في تقديم الطبعة الأولى أنه «لا يقصد ظالماً بعينه ولا حكومة مخصصة».

فليست الحيطة سر كتمان الكتاب عن أصدقائه الذين أطلعهم على كتاب جمعية أم القرى، وإنما نرجح أنه طواه عنهم لأنه لم يفرغ من وضعه في صيغة النشر و التلاوة، ووقف به عند تدوين العناوين ورؤوس التعليقات وإعدادها للتوسع فيها و إفراغها في قالبها الأخير عند تقديمها للطبع أو للنشر في الصحف، ويتبين ذلك من المقابلة بين مقالات المؤيد ومقالات الطبعة الأخيرة بعد تنقيحها، فإن الاختلاف بينهما أشبه بالاختلاف بين عجالة التحضير وبين النسخة المتممة للنشر و التلاوة. وقد ظهرت الطبعة المنقّحة في ضعفي صفحات الطبعة الأولى، وقال الدكتور عبد الرحمن الكواكبي حفيده إنه« ينشر هذا

الكتاب للمرة الأولى على العالم العربي منقحاً ومزيداً بقلم المؤلف، وهو يختلف كثيراً عن النسخة المطبوعة و المتداولة حتى اليوم».

ويروي الأستاذ سامي الكيالي عن الدكتور أسعد الكواكبي ابن المؤلف أنه أخبره «أن والده رحمه الله قد أضاف على الكتاب بعد طبعه إضافات كثيرة، و الهوامش التي يحتفظ بها بقلم والده تؤلف كتاباً مستقلاً بحجم الكتاب المطبوع وهو يعتزم طبع هذه النسخة قريباً ليطلع العالم العربي على ثمرة أفكار والده في الحرية و الاستعباد».

ونجتزئ في المعارضة بين الطبعة الأولى وبين النسخة التي طبعها الدكتور أسعد وصدرت منذ سنتين - بالمقابلة بينهما في موضوع واحد يدل على سائر المواضيع: وهو كلامه عن التربية.

ففي الطبعة الأولى وردت مقالة الاستبداد و التربية بالنص الذي ننقل منه ما يلي إذ يقول:

«خلق الله في الإنسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد. فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدانه، أي أن التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً، إن خيراً فخير وإن شراً فَشَرّ. وقد سبق أن الاستبداد المشؤوم يؤثر على الأجسام فيورثها الأسقام ويسطو على النفوس فيفسد الأخلاق ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم، بناءً عليه تكون التربية و الاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته. واستعداد الإنسان لا حدّ لغايته. فقد يبلغ في الكمال إلى ما فوق مرتبة الملائكة لأنه هو المخلوق الذي يحمل الأمانة وقد

أبتها كافة العوالم، ويصح أن تكون هذه الأمانة هي تخيير تربية النفس على الخير أو الشر، وقد يتلبس بالرذائل حتى يكون أحط من الشياطين بل أحط من المستبدين، لأن الشياطين لا ينازعون الله في عظمته، والمستبدون ينازعونه فيها، ولكن لحاجة في النفس، والمتناهون في الرذالة قد يقبحون عبثاً لا لغرض، حتى قد يتعمدون الإساءة لنفسهم.

«الانسان في نشأته كالغصن الرطب فهو مستقيم لدن بطبعه، ولكنها أهواء التربية تميل به إلى يمين الخير أو شمال الشر، فإذا شبَّ يبس وبقي على أمياله مادام حياً، بل تبقى روحه إلى أبد الآبدين في جحيم الندم على التفريط أو نعيم السرور بإبقاء حق وظيفة الحياة. ما أشبه الإنسان بعد الموت بالفرح الفخور إذا نام ولذت له الأحلام، وبالمجرم الجاني إذا نام فغشيته قوارص الوجدان بهواجس كلها ملائم وإيلام».

أما في الطبعة الأخيرة فهذه المقالة ترد على الصيغة التالية:

« خلق الله في الإنسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد، فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدانه. أي أن التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وقد سبق أن الاستبداد المشؤوم يؤثر على الأجسام فيورثها الأسقام ويسطو على النفوس فيفسد الأخلاق ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم.... بناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته، وهل يتم بناء وراءه هادم؟.. الإنسان لا حدّ لغايته رقياً وانحطاطاً، وهذا الإنسان الذي حارت العقول فيه الذي تحمَّل أمانة

تربية النفس وقد أبتها العوالم، فأتم خالقه استعداده ثم أوكله لخيرته، فهو إن يشأ الكمال يبلغ فيه إلى ما فوق مرتبة الملائكة إن كان هناك ملائكة غير خواطر الخير، وإن شاء تلبس بالرذائل حتى يكون أحط من الشياطين إن كان هناك شياطين غير وساوس النفس بالشر. على أن الإنسان أقرب للشر منه للخير، وكفى أن الله ما ذكر الإنسان في القرآن إلا وقرن اسمه بوصف قبيح، كظلوم وغرور وكفار وجبار وجهول و أثيم. ما ذكر الله تعالى الإنسان في القرآن إلا وهجاه فقال: قتل الإنسان ما أكفره.. إن الإنسان لكفور...إن الإنسان لفي خسر...إن الإنسان ليطغى... خلق الإنسان عجولا....خلق الإنسان من عجل.

«ما وجد من مخلوقات الله من نازع الله في عظمته. فالمستبدون من الإنسان ينازعونه فيها والمتناهون في الرذالة قد يقبحون عبثاً لغير حاجة في النفس، حتى وقد يعتمدون الإساءة لأنفسهم.

»الإنسان في نشأته كالغصن الرطب، فهو مستقيم لدن بطبعه، ولكنها أهواء التربية تميل به إلى يمين الخير أو شمال الشر، فإذا شبّ يبس ويبقى على أمياله مادام حياً، بل تبقى روحه إلى أبد الآبدين في نعيم السرور بإيفائه حق وظيفة الحياة، أو في جحيم الندم على تفريطه. وربما كان لا غرابة في تشبيه الإنسان بعد الموت بالإنسان الفرح الفخور إذا نام ولذّت له الأحلام، أو بالمجرم الجاني إذا نام فغشيته قوارص الوجدان بهواجس كلها ملائم وآلام».

* * *

ولم تخلُ مقالة من مقالات طبائع الاستبداد من مثل هذا التنقيح أو مثل هذه الزيادة على قلة في بعض المواضع وكثرة في غيرها. إلا أنه فارق بين النسختين كالفارق بين المسودة المعدّة للتذكير والتحضير والنسخة التي فرغ منها عمل التأليف.

على أن العبرة بروح الكتابة وما نسميه «نفس الكاتب» في كلتا النسختين. ولم تكن هذه «الروح» في المقالات ولا في الطبعة الأولى بأخفى منها في الطبعة التي ظهرت بعد وفاة المؤلف، بل نرى أن روح الكاتب كانت في «مسوداته ومذكراته» أبرز منها في طبعتها الأخيرة، كما يتفق أحياناً في الكتابة التي تمليها السجية عفو الخاطر والكتابة التي يدخلها التنقيح وتعمل فيها المراجعة، أو كما يتفق أحيانا بين الكتابة «المركّزة» المتجمعة وبين كتابة التبسيط والإفاضة.

وقد أحسن السيد محمد رشيد رضا حين شبَّه المقالات في الحالتين بالأديم الممدود فقال في المنار «إن الكتاب كان مقالات مختصرة نشرت في المؤيد ثم مدها صاحبها من الأديم العكاظي وزاد عليها فكانت كتاباً حافلاً ينجلي له علمه الأول بصورة أوضح و أجلى».

نعم، أوضح، وأجلى. ولكن الأديم هو الأديم ولعله قبل مده كان أوثق و أقوى.

وسرعان ما تداول القراء مقالة بعد أخرى من هذه «المذكرات» التي هيأها صاحبها للنشر في الصحافة حتى أحسوا أنها طبقة في النقد الاجتماعي لم يعهدوها لعامة الكتاب في الصحف، وعلموا من مطلعها أنها بقلم رجل

من رجال الدين فخطر لهم أنها لا تكون لغير رجل من رجلين : الأستاذ الإمام محمد عبده أو السيد محمد رشيد رضا تلميذه و مريده، ولسنا نحسب أنه خاطر يخطر لمن يعرف أسلوب الرجلين ويحسن التمييز بينه وبين أسلوب تلك المقالات، فإن بضعة أسطر من المقالات كافية للجزم بأنها أسلوب من الكتابة غير أسلوب الإمام وتلميذه الرشيد، ولكن شيوع هذا الخاطر يدل على المنزلة التي قدَّرها جمهرة القراء لصاحب تلك المقالات، فلن يكون في تقديرهم إلا علماً من أعلام الرأي والإصلاح.

ولم تنقطع الظنون عند وقوف المطَّلعين على سر مقالات المؤيد، فقد كان من اليسير على الكثيرين أن يفهموا أن محمد عبده وتلميذه الكبير لا يتسع لهما صدر«المؤيد» مع ما بينهما وبين القصر الخديوي من الجفوة والقطيعة، ولم يكن من اليسير على قراء ذلك العهد أن يفهموا كيف يتسنى هذا البحث لكاتب شرقي عرفوا أنه لا يعلم من اللغات غير اللغات الشرقية، ولا يحسن القراءة في غير لغته واللغتين التركية والفارسية.

قال السيد رشيد :«كنا على وفاق في أكثر مسائل الإصلاح حتى أن صاحب الدولة مختار باشا الغازي اتهمنا بتأليف الكتاب عندما اطّلع عليه»

ثم قال :«وقد زعم زاعمون أن معظم ما في الكتاب مقتبس من كتاب لفيلسوف إيطالي. ومن كان له عقل يميز بين أحوال الإفرنج الاجتماعية وأحوالنا وذوقهم في العلم وذوقنا يعلم أن هذا الوضع وضع حكيم شرقي يقتبس علم الاجتماع والسياسة من حالة بلاده حتى كأنه يصوّرها تصويراً..»

وقال الأستاذ إبراهيم سليم النجار «سبق لي أن قرأت في شبابي كتاب (الكونترا – سوسيال) أي العقد الاجتماعي لجان جاك روسو ثم انقطعت عن الرجوع إليه. فلما قرأت كتاب طبائع الاستبداد أعاد إلى ذاكرتي كتاب الكاتب الإفرنسي العظيم. ولو كان الشيخ العربي يعرف ولو قليلاً اللغة الفرنسوية لاعتقدت أنه أخذ عنه أو احتذى حذوه، ولكن الحقيقة أن العقول النيرة والقلوب الكبيرة نيرة وكبيرة مهما اختلفت لغاتها وبلادها وأقاليمها..»

وإن الكواكبي نفسه لَيعفي القراء والنقاد من مؤونة الظن في اقتباسه واطلاعه على وصف الاستبداد وعوارضه الاجتماعية في كتب غيره. فإنه قد ذكر ذلك في كلامه وتبرع به دون أن تدعوه الضرورة إلى ذكره. فكل ما يفهم من قراءة «طبائع الاستبداد» أن صاحبه على علم واطلاع في موضوعه، وتلك بداهة لا حاجة إلى التنبيه إليها. إذ كان من الغفلة أن يطالب الكاتب بالتأليف في موضوع لم يكن على علم به واطلاع فيه.

أما أن يكون الاقتباس على مثال ما نسميه بالسرقة المقصودة فذلك إسراف في الظن لا مسوّغ له سواء رجعنا بالمعارضة والمضاهاة إلى الكتب التي سرد الكواكبي أسماءها أو إلى الكتب التي أفاضت في هذا الموضوع ولم يكن في وسعه أن يطلع عليها أو يسمع بأسمائها.

قال الكواكبي: «لا خفاء أن السياسة علم واسع جداً يتفرع إلى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتى. وقلما يوجد إنسان يحيط بهذا العلم كما أنه قلما يوجد إنسان لا يتحكك فيه. وقد وجد في كل الأمم المترقية علماء سياسيون

تكلموا في فنون السياسة ومباحثها استطراداً في مدونات الأديان أو الحقوق أو التاريخ أو الاخلاق أو الأدب، ولا تعرف للأقدمين كتب مخصوصة في السياسة لغير مؤسسي الجمهوريات في الرومان واليونان، وإنما لبعضهم مؤلفات سياسية أخلاقية ككلية ودمنة ورسائل غوريغوريوس ومحررات سياسية دينية كنهج البلاغة وكتاب الخراج. وأما في الشؤون المتوسطة فلا تؤثر أبحاث مفصلة في هذا الفن لغير علماء الإسلام. فهم ألفوا فيه ممزوجاً بالأخلاق كالرازي والطوسي والعلائي وهي طريقة الفرس، وممزوجاً بالأدب كالمعري والمتنبي وهي طريقة العرب، وممزوجاً بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة وهي طريقة المغاربة.

«أما المتأخرون من أهل أوربة ثم أمريكا فقد توسعوا في هذا العلم وألفوا فيه كثيرا وأشبعوه تفصيلاً، حتى إنهم أفردوا بعض مباحثه في التأليف بمجلدات ضخمة، وقد ميزوا مباحثه إلى سياسة عمومية وسياسة خارجية وسياسة ادارية وسياسة اقتصادية وسياسة حقوقية إلى آخره.

وقسموا كلاً منها إلى أبواب شتى وأصول وفروع. أما المتأخرون من الشرقيين فقد وجد من الترك كثيرون ألفوا في أكثر مباحثه تآليف مستقلة وممزوجة مثل أحمد جودت باشا وكمال بك وسليمان باشا وحسن فهمي باشا، والمؤلفون من العرب قليلون ومقلون، والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم رفاعة بك وخير الدين باشا و أحمد فارس وسليم البستاني والمبعوث المدني..»

* * *

ومن أيسر نظرة يدرك القارئ المطّلع أن الكواكبي أراد أن يسرد بعض الشواهد على مبلغ اهتمام الأقدمين والمحدثين بعلوم السياسة ومباحثها، ولم يرد أن يستقصي مراجع الاطلاع في هذه العلوم والمباحث، ولا مراجع الاقتباس منها في «طبائع الاستبداد».

ولو أنه قصد إلى الاستقصاء لما فاته أن يذكر من كتب الأقدمين أهم ما كتبه فلاسفة اليونان وأفضله في بابه، وهما كتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب السياسة لأرسطو، وليس هذا ولا ذاك من رؤساء الجمهوريات، ولا فاته أن يذكر الماوردي صاحب «الأحكام السلطانية» أو بدر الدين بن جماعة صاحب «تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام» أو ابن تيمية صاحب «السياسة الشرعية»، أو محمد بن علي بن طباطبا صاحب «الفخري في الآداب السلطانية»، أو ابن حمدون صاحب «التذكرة في السياسة والآداب الملكية»، وغيرهم و غيرهم ممن صنفوا وألفوا في هذه المباحث ولا يفوت المؤرخ ذكرهم في مقام الاستقصاء.

ولا يلزم أن يكون الكواكبي قد اطّلع على كتب المؤلفين الذين ذكرهم في مقدمة «طبائع الاستبداد»، وإنما نرجح أن بعض هؤلاء المؤلفين كان يستدعيه إلى قراءته بإغراء من سيرته ومناسبات تأليفه. فمن الصعب على باحث كالكواكبي يعرف التركية أن يعرض عن قراءة «أحمد جودت» الصدر الأعظم الذي بلغ من عنايته بالعربية أن يؤلف في نحوها وبلاغتها ويعقب على التفسيرات القرآنية فيها، ولم يكون أروج من مصنفاته بين أدباء الترك العرب بعد وفاته في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٥).... ومن الصعب كذلك على كاتب مثله يعرف الفارسية أن

يعرض عن قراءة العلائي الملقب بالمحقق الثاني (١٤٦٣ -١٥٣٤) وهو المستشار الأمين المأمون للشاه طهماسب ابن اسماعيل الصفوي الذي ينتسب والكواكبي إلى أسرة واحدة، ولكننا نراجع هؤلاء المؤلفين ونراجع غيرهم من المذكورين في مقدمة«طبائع الاستبداد» فنعلم أنهم مؤرخون يروون أخبار الدول والحكومات ويعقبون على عهود السلاطين والأمراء ويتحدثون عن العدل والظلم وعن العادلين والظالمين في سياق هذه الأخبار، أو نعلم أنهم من فلاسفة السياسية الذين يفصلون القول في أوضاع الحكم ودساتير الديمقراطية والنظم النيابية، أو أنهم ناصحون من حكماء الدين والمعرفة يوصون بالخير ويحذرون من الشر ويعظون الساسة بما ينبغي وما لا ينبغي في حق الله وحق الرعية، ولم يستخرج أحد من كتبهم مبحثاً مفصلاً في تحليل عناصر الاستبداد وتفسير عيوبه وأعراضه وآثاره في طوائف الرعايا على تعدد أطوارها وشواغلها كهذا المبحث الذي استوحاه الكواكبي من تجاربه ودراساته ونظراته وتأملاته، ولا يعود الفضل فيه إلى غير فطنته وابتكاره واستقلاله بفهمه وصحة نظره، فإن هذه المطالعات قد اطّلع عليها المئات كما اطّلع عليها الكواكبي ولم يستخرجوا منها الكتاب الذي انفرد به ولم يسبقه أحد إليه.

وإنما يصدق وصف الاقتباس على مؤلف واحد لم يذكره الكواكبي في المقدمة ولكنه ذكره واستشهد به في كلامه على التخلص من الاستبداد، (فتوريو ألفييري)، الذي أردف اسمه بنعت المشهور في قوله :«لهذا أذكر المستبدين بما أنذرهم به الفياري المشهور حيث قال : لا يفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه. فكم من جبار عنيد جنّد له مظلوم صغير ؟!»

ولا بد أن يكون هذا المؤلف هو المقصود فيما رواه صاحب المنار عمَّن ينسبون أفكار الكواكبي إلى «فيلسوف ايطالي» معروف، فإنه صاحب أشهر كتاب عن الاستبداد ظهر في أواخر القرن الثامن عشر (١٧٧٧)، وشاع بعد ذلك أيما شيوع بين أيدي الثوار الإيطاليين، ولاسيما جماعة الكربوناري - الفحامين – الذين أسسوا جماعتهم السرية معارضة لجماعة البنائين أو الماسون، وتسرب أعضاؤها إلى كل مكان يغشاه إيطاليون في مواني البحر الأبيض ومدن الشرق الأدنى، ومنها مدينة حلب التي كانت «مركزاً مهماً» لتجار البندقية والمتكلمين باللغة التوسكانية، وأوى إليها كثير من المثقفين والمهاجرين السياسيين منذ راجت فيها حركة التجارة على طريق الهند والأقطار الأسيوية.

وبين «الكواكبي» و«ألفيري» شَبَه قريب في السيرة والمنزع وظروف الحياة، فكلاهما تعود الرحلة في طلب المعرفة بأحوال الأمم، وكلاهما اضطر إلى الكتابة في ظل الرقابة، وكلاهما نزل مختاراً أو مضطراً عن ثروته وعتاده، و زاد «ألفيري» فأسلم ما بقي له في الثروة إلى أخته لتسلمه منها نفقته التي يحتاج إليها، رغبة منه في التفرغ للرحلة والكفاح بالقلم والدعوة اللسانية.

وكتب «ألفيري» مقالاته عن الاستبداد Della tirannide فظهر فيها أثر اطلاعه على «روسو» و«منتسكيو» وعلى «مكيافلي» من قبل، ولم يظهر فيها مذهب خاص يجيز للناقد أن يصفه بالفيلسوف كما وصفه القائلون بأن الكواكبي نقله بحروفه واعتمد عليه في تفصيل آرائه.

والتشابه بين رؤوس الموضوعات بادٍ من النظرة العابرة إلى صفحات الكتابين فقد كتب ألفييري في تعريف الاستبداد وتعريف المستبد، ثم كتب عن الخوف والتملق والطموح، ووزراء المستبد، ثم كتب عن الانحلال والدين والمقابلة بين الاستبداد القديم و الاستبداد الحديث وعن الشرف المزيف والمجد الكاذب وعن نفوذ الزوجات في عهود الاستبداد وعن وسائل المقاومة للاستبداد وعن الشعوب التي لا تحس الطغيان وعن الحكومات التي تركن إليه، ونظر في جميع هذه الموضوعات إلى أطوار الأمم الأوربية على خلاف منهج الكواكبي في النظر إلى الأمم الشرقية والتعمق في وصف أحوالها، مما يجيز لنا أن نقول أن مؤلف أم القرى كان خليقاً أن يكتب آراءه عن الاستبداد ولو لم يطلع على الرسالة الإيطالية.

ويتساءل الأستاذ أحمد أمين : كيف وصلت الرسالة الإيطالية إلى علمه ؟ وهو سؤال لا جواب له غير الحيرة إن لم تكن للكواكبي وسيلة أخرى للعلم بألفييري غير العلم بلغته. إلا أننا نعلم من طبائع «الاستبداد» إن الفييري كان مشهوراً عند الكواكبي في زمانه، ونعلم أن هذه الشهرة لا تستغرب مع كثرة الإيطاليين في حلب و رغبة الكواكبي في الاستفادة من معلومات أصحابه الأوربيين المثقفين وهو كثير الاتصال بهم وهم يلقونه على الدوام في أعماله و أعمالهم، وقد كان اسم «إيطاليا الفتاة» على كل لسان بين طلاب الحرية العثمانيين ومنهم جماعة «تركيا الفتاة» الذين استعاروا اسمهم من اسم الجماعة الإيطالية، وقد كان الإيطاليون يسعون في تلقين دعوتهم ولا ينتظرون من يسألهم عنها، وكانوا ينتشرون في سواحل البحرين الأبيض والأحمر وينشرون فيها أنديتهم السرية التي تنتمي إلى

طوائف الفحامين وتحاول أن تزاحم في ميادين السياسة طوائف الماسون — أو البنائين الأحرار — التي غلب عليها في الشرق نفوذ الإنجليز والفرنسيين، ومن تاريخ الكواكبي بعد الهجرة من حلب نعلم أنه كان يلتقي بوكلاء الحكومة الإيطالية في شواطئ بحر العرب وينتقل على إحدى السفن الإيطالية بإذن من أولئك الوكلاء، فليس بالعسير بعد ذلك أن يعرف الكواكبي شيئاً عن الكاتب الإيطالي «المشهور» كما وصفه في كلامه، وأن يلم برؤوس الموضوعات التي طرقها في رسالته عن الاستبداد وهو مشغول بمكافحة الاستبداد منذ صباه، وأن يعارض تلك الرسالة بما يقابلها معارضة الشاعر للشاعر في القصيدة المأثورة لديه، ولا ينقل منه شيئاً بهذه المعارضة غير الوزن والقافية، أو غير العنوان والمناسبة.

ونحن نرجح هذا الاحتمال على قول بعض المعاصرين إن الكواكبي اطّلع على ترجمة تركية لطبائع الاستبداد من عمل كاتب من أحرار الترك المهاجرين إلى سويسرة يسمى «عبد الله أمين» فإننا نشك في ذلك لأن مثل هذه الترجمة لا تطبع يومئذ في البلاد العثمانية، وإذا طبعت في مصر فلا بد أن تكون متداولة معهودة بين العثمانيين أصحاب الكواكبي فلا يهمل ذكرها ولا يختلف الباحثون في أمرها عند السؤال عن مصدرها ولا يخفى حقيقة هذا الأمر على مختار باشا الغازي وهو وكيل الدولة العثمانية المسؤول عن أخبار هذه المنشورات التي تراقبها الدولة.

وأصاب السيد رشيد رضا إذ قال إن مباحث طبائع الاستبداد لا يكتبها قلم أوربي ولا يقتبسها شرقي من المراجع الأوربية، ونزيد على هذا أن «ألفيري» نفسه لا يستطيع أن يصور عناصر الاستبداد كما

صوَّرها الكواكبي من وحي تجاربه وتأملاته في البلاد العثمانية وفي بلده وإقليمه بصفة خاصة، لأنه يحمل «مصورة» تريه ما يقع عليه حسه ولا تريه مالم يشهده بعينيه.

فإذا كان جهل الكواكبي بالإيطالية يبعث على استغراب علمه بألفيري، فإن جهله بهذا الكاتب خاصة هو الغريب من رجل يعاشر الإيطاليين ويسمع بثورتهم ويسمع أن ثوار الترك يستعيرون منهم تنظيم حركتهم، ويسألهم و لا شك عن كاتبهم «المشهور» أو يتلقى منهم البيان عنه بغير سؤال.

وما كانت الشبهة أن اتصال الكواكبي بالإيطاليين قليل لا يسمح بهذه المعرفة، وإنما الشبهة أنها كانت تزيد على اللازم لهذه المعرفة، حتى خطر لبعضهم أنها تمتد من الصحبة إلى «التواطؤ» على السياسة الخفية، فلولا المصادفة التي وقعت على الرغم من الكواكبي ولم تقع باختياره ولا بتدبيره لاستعصى على المدافع عنه أن يدحضها بغير حسن الظن وصدق الفراسة.

«حدث في يوم ما أن قنصل دولة إيطاليا في حلب – السنيور انريكو ويتو – بينما كان راكباً عربته، ماراً في محلة الجلوم، التي هي محلة السيد عبد الرحمن الكواكبي، إذ وقع على ظهره حجر عاثر صدمه صدمة عنيفة تألم منها جداً، بحيث اضطرته أن يعود إلى منزله وأن يرسل إلى الوالي تقريرًا يطلب فيه منه البحث عن الضارب وإجراء العقوبة القانونية.... هذه الحادثة فتحت للوالي باباً يلج منه الى إلصاق هذه الجناية بالسيد الكواكبي، لا سيما وقد كانت الحادثة في محلته وعلى

مقربة من داره، وفي الحال أوعز إلى بعض شياطينه بأن يرفع إليه تقريراً فحواه أن الكواكبي منضم إلى عصابة أرمنية – وكانت ثورات الأرمن في تلك الأيام كثيرة – وأنه قبل يومين أغرى بعض الناس فرشق على قنصل إيطاليا حجراً أصاب ظهره، محاولاً بذلك إحداث ثورة بين الأرمن والمسلمين بحلب..... وفي الحال أصدر الوالي أمره بإلقاء القبض على الكواكبي وزجّه في السجن، وما أسرع ما أخرج من السجن مخفوراً وأجلس على كراسي المحكمة لإصدار الحكم عليه»[1].

ويستوى اتهام الكواكبي في هذه القضية وبراءته منها في تكذيب الوشاة الذين رجموا بالظن فجعلوه صنيعة الإيطاليين، فإن الصنيعة لا يسلمه حماته المزعومون إلى الموت وهم ينظرون.

(١)«وقد تمت طباعة ما جاء عن العقاد بحرفيته ونصه».

المحتوى

الصفحة

نظرات في أسئلة النهضة ورؤى أعلامها

عبد الرحمن الكواكبي وكتابه

الطبعة الأولى / ٢٠١٧م